إيتالو كالفينو

مختارات قصصية



علي مولا



قصص وروايات

ترجمة سمير القصير

مختارات
قصصية

اسم الكتاب: مختارات قصصية
المؤلف: ايتالو كالفينو
المترجم: سمير القصير
الطبعة الاولى ٢٠٠٠ - ٢ / ١٩٩٤

الاشراف الفني: انتشال هادي

لوحة الغلاف: ازاد ناناكلي



P.O.BOX: 701/235
1399, BUDAPEST, HUNGARY
☎: (0361) 1732236
Telex: 223237 SAHARA
FAX: (361) 1188149 SAHARA

إيتالو كالفينو

مختارات قصصية



إلى ازدهار

ومايا وهمسة ومهيار

سمير

ايتالو كالفينو
ITALO CALVINO (1923-1985)

يعتبر ايتالو كالفينو من أبرز الشخصيات المهمة والفريدة في الأدب الإيطالي المعاصر. روائي وناقد وصحفي لعب دوراً مهماً في الحياة الفكرية الايطالية. وقد قال عنه ب. فورنل في المجلة الأدبية: «إن إيتالو كالڤينو يصيغ عملاً لبقاً ومرهفاً ذا حدود واضحة، ضمن أشكال وظواهر من الخيال المبدع والمتنوع، يقترن على الأخص بمراحل حياة مؤلفه. وبإمكاننا اليوم أن نقيس إلى أي حد يكون فيه هذا العمل محاولة لأخذ صيغة روائية. إنها حيازة ترفض كل المظاهر التي تقوم على اللعب والسعادة بالكتابة بقدر ما أن اللعب والسعادة من المواضيع الرائعة للعمل والتفكير والتأمل».

ولد ايتالو كالفينو في الخامس عشر من تشرين الأول ـ أكتوبر عام ١٩٢٣ في سانتياغو لاس فيغاس بجزيرة كوبا لأب كان استاذاً في الزراعة وأم كانت استاذة في علم النباتات، وبعد ولادته بسنتين عاد مع والديه إلى ايطاليا، الوطن الأم، ليستقر معهما في مدينة سان ريمو حيث أمضى فترات طفولته ومراهقته وأولى سني شبابه وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

وقد حالف الحظ ايتالو كالفينو بولادته لعائلة تميل الى العلم الذي كان بالنسبة لها أكثر بكثير من مهنة. وكان ميلها له يتسم بمبادىء الأخلاق والوجود، وتأثر بوالدته التي كانت تعشق النباتات والتي بقيت تدير معهداً زراعياً شهيراً في سان ريمو حتى نهاية حياتها، وتعلم منها معرفة نسيج الطبيعة المعقدة والاعتقاد بما يمكن أن تعطيه الملاحظة وتؤمنه.

وعند بلوغه سن العشرين التحق بألوية غاريبالدي، وهي ألوية المقاومة الوطنية الايطالية، وقاتل في صفوفها ضد الجيش الألماني والفاشية، وفي العام

١٩٤٥ انتقل إلى مدينة تورينـو الايطاليـة، مدينـة البروليتـاريا والـرأسماليـة الايطاليتين، ليعمل في صحيفة «الأونيتا» لسان حال الحزب الشيوعي الايطالي، التي سرعـان ما تـركها ليعمـل لـدى دار النشر الايطـاليـة المعـروفـة بـاسم «اينـاودي». وكان قـد تخرج اثنـاء ذلك من جـامعة تـورينو مجـازاً بـالآداب بأطروحة عن «جوزيف كونراد».

في العام ١٩٤٧ نشر كالفينو روايته الأولى «درب أعشاش العنكبوت» وكانت أول ما نشره على الرغم من أنه كان قد بدأ الكتابة بعد نهاية الحـرب العالميـة الثانية حيث كتب قصصاً قصيرة استوحاهـا من روح المقاومـة الوطنيـة ضد الفاشية. وقـد تناولت روايتـه الأولى، التي حملت سمات الـواقعية الجـديدة، المقاومة التي شاركت فيها عائلته ضـد الفاشيـة، وقدم لهـا الكاتب والشـاعر الايطالي «شيزاره بافيزه» الذي كان أول المهتمين بكالفينو أدبياً.

في تورينو وجد كالفينو المناخ الملائم ليخطو أولى خطواته على طريق الأدب، فكان له أن التقى أيضاً المفكر والأديب الايطالي «ايلنيو ڤيتـوريني» ليثمر هـذا اللقاء عن تأسيس مجلة «المنابو» التي لعبت دوراً فعالاً في الأوسـاط الثقافيـة الايطالية خلال مرحلة الستينات.

في العـام ١٩٤٩ خرجت مجمـوعتـه القصصيـة القصـيرة الأولى بعنـوان «وأخيراً يأتي الغراب». وهي مجموعة قصص تدور حـول موضـوع المقاومـة، اتبعهـا عام ١٩٥٢ بـأولى روايات ثـلاثيته المعـروفة بـاسم «أجدادنـا»، التي شملت: «الفيسكونت المشطور» ١٩٥٢ و «البارون الجاثم» ١٩٥٧، و «الفارس الوهمي» ١٩٥٩، وظهرت من خلالها قوة موهبته وقدرته على تصوير الأساطير والتحليق المغـرق في الوصف الخيـالي، وقد أكـد على هـذا الأسلوب أيضـاً في مجموعته القصصية «الحكايا الايطالية» التي كتبها خلال فترة إنجاز ثلاثيتـه الرائعة ونشرها عام ١٩٥٦ مخلفاً وراءه الطريق أو الأسلـوب المباشر المستقيم والسهل ظاهـرياً ليـدخل في مجمـوعة من الأسـاليب والرمـوز الغنية بـالمعاني الأخلاقية والانسانية، وقد كانت تجربته الروائية والأدبيـة قد اغتنت بعـد أن كتب عدة مجموعات من القصص القصيرة ومنهـا «غيمة الضبـاب والدخـان» التي طبعت عام ١٩٥٨.

في العام ١٩٦٠ طالعت «المنابو» قراءها ببحث مطول كتبه كـالفينو بعنـوان

«بحر الموضوعية» بدا فيه واضحاً أن كالفينو قد غـيَّر مسيرة أسلـوبه الأدبي وخطـه الروائي وقـد ظهر هـذا التغيير واضحـاً في مجمـوعتيـه القصصيتـين «ماركوفالدو ـ أو الفصول في المدينة ١٩٦٣» ـ «ويوم من أيام مستقص» وهذه الأخيرة كانت تطرح وجهة نظر خلاصتها مراجعة لما مضى ووعد بحلول فكـرية جديدة. وفي الحقيقـة، بقي كالفينـو أكثر من عشرين سنـة باحثـاً ليتأكـد من الحقائق الجديدة في العالم والحياة والأدب وليمحص في دقائقها وليمنح الحياة لخط أدبي مدهش يعبر عن موهبة وعبقرية عظيمتين.

مع حلول العام ١٩٦٤ ترك كـالفينو ايطـاليا ورحـل برفقـة زوجته وابنتـه الوحيدة «جوڤانا» إلى باريس حيث كانت رؤيته الجـديدة للعـالم، وحيث عالمـه الخيالي المتجدد فكتب آنئذٍ «الكونيـات ١٩٦٧» و «قلعة الأقـدار المتصالبـة»، و «المدن اللامرئية» ١٩٧٢. وبعد ذلك بسبع سنوات عـاد إلى إيطاليـا ليستقر في روما ويكتب في العديد من الصحف والمجلات.

في عام ١٩٧٩ نشر كالفينو كتابه «فيما لو كان في ليلة شتوية مسافـراً....» وأظهر من خلاله موهبته وقدرته على التحليل والتركيب، وأكدها مجدداً مبرهناً على أن باستطاعة الأدب أن يفعل ما لا يمكن فعله. وكان ذلـك أول ميزان من موازين تأملاته وأمانته وشكوكه أيضاً. وأية شكوك تلك؟ أهي شكـوك انسان عقـلاني؟ أم رجل يعتقـد بموضـوعية التـأمل الـدقيق؟. لا بد من القـول إن تأملاتـه الشكوكيـة تلك كـانت ذات طبيعة عقـلانية وجـدت أنه من الضرورة بمكـان اللجوء إلى تعظيم الطـرائق والنتائـج في الأدب. مع هـذه الوقفـة بـدأ كالفينو مرحلة بحث عن العـالم المقلوب، هـذا البحث الذي انقطـع مع ظهـور كتابه «بالومار» وهو آخر أعماله الروائية القصصية ذات النزعة التـأملية التي نشرت أثناء حياته، وقد عرف هذا الكتاب بأنه يشكل بحد ذاته سيرة كالفينـو الذاتية بكل وضوح.

بعد وفاته في ١٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٥ قامت زوجته بجمع ثـلاثة فصـول من كتاب كان قد شرع بكتابته قبل أن توافيه المنية ولم يتمكن من إتمامه. وقد تحـدثت فصول الكتـاب المذكـور عن ثلاثـة من حواس الانسـان وهي الشم، الذوق والسمع وقد خرج بعنوان «تحت الشمس المرقطة».

هذه القصص

لقد تم اختيار مجموعة القصص القصيرة هذه من عدة مجموعات قصصية صدرت للكاتب الايطالي خلال فترات مختلفة، ومتباعدة أحياناً، من حياته الأدبية. ولعله من المفيد أن نعرج ولو بشكل موجز عليها ليتسنى للقارىء معرفة بعض الخطوط العامة التي نسجها كالفينو في تلك المجموعات.

١ ـ **ماركو ڤالدو**: في العام ١٩٦٣ جمع كالفينو ضمن كتاب واحد عشرين قصة قصيرة ألفها خلال سنوات مختلفة وأطلق عليها اسم «ماركو ڤالدو، أو الفصول في المدينة». هذا الكتاب كان موجهاً في بداية الأمر إلى جمهور الشبيبة لكن كالفينو فكر في لحظة ما واستنتج أن باستطاعة الكبار أيضاً تذوق الكتاب.

وحول الكتاب قال كالفينو: وسط مدينة الاسمنت والاسفلت (ويقصد بها تورينو) يبحث ماركو ڤالدو عن الطبيعة. ويتساءل، ولكن أما زال للطبيعة من وجود؟. فالطبيعة التي يجدها أمامه هي طبيعة مشوهة متصالحة مع الحياة المزيفة. وبطل قصصنا هذه شخص حزين يعبر عن حزنه وألمه ويأسه أيضاً من خلال قصص نسجت بعناية محافظة في نفس الوقت على الأمانة والوفاء للبنية القصصية الكلاسيكية، تلك البنية الخاصة بالقصص القصيرة المزينة بالصور والتي نراها في الصحف أو المجلات المخصصة للأطفال والشباب.

لقد أُعتبر ماركو ڤالدو حينها كآخر تجسيد لمجموعة من الأبطال طيبي القلب، الفقراء ـ والشياطين على طريقة شارلي شابلن مع خاصية أن واحدهم هو ـ رجل الطبيعة المتوحش الطيب ـ المنفي إلى المدينة الصناعية. إن كالفينو وبعد أن رأى الانسجام الطبيعي بين الطبيعة والانسان والتاريخ قد غرق في بحر الاسمنت وأنهار مساحيق التنظيف وغيرها...، وصف تحول الانسان إلى نوع من الشبح الحالم بنوع من الشفقة المبتسمة، عالماً ومدركاً في نفس الوقت أنه من غير الضروري ذرف الدموع حزناً على ماركو ڤالدو وإنما أن الاشارة باصبع الاتهام إلى أولئك الذين خربوا على ماركو ڤالدو طبيعته وانسجام حياته معها. إن هذا بحد ذاته سيبقى رغم ذلك محض اتهام عقيم. ومن المفيد ذكر ما قاله الناقد بيترو شيتاتي الذي اعتبر مع نقاد آخرين، أن كالفينو أخفى خلف تلك الصور والخيال المزهر صورة شخصه الحزينة.

٢ ـ **بالومار**: في بداية السبعينات خرج كالفينو على قراء صحيفة «الكوريري ديللا سيرا» التي كان يتعاون معها، بشخصية جديدة أسماها «بالومار» وجعل منها بطلاً لمجموعة من القصص القصيرة أشبه بالتأملات الفكرية، إن تلك الشخصية تشبه إلى حد ما مركز رصد فضائي. وقد توقفت تلك القصص فترة لتطل على القراء من على صفحات صحيفة «لاريبوبليكا» لتخرج بعدئذ ضمن كتاب واحد حمل اسم «بالومار».

إن بالومار هذا شخصية «فانتازية» خرجت من تلك الفانتازية التي تثير خيال كالفينو. بالومار هذا يقترب من البحر ليقرأ موجة أو سيف الشمس... الخ إلَّا أنه سرعان ما تنتابه دهشة المعرفة بأنه لم ير شيئاً، لا موجة ولا سيفاً... وأنه كان متسرعاً. يتنبه أيضاً إلى أن كل ذلك كان يجري ضمن ساحة خياله وعقله الذي يظهر أساليب وطرائق جديدة للملاحظة.

إن ضروب الإخفاق في التصنيف وتفكيك الرموز لدى بالومار أمام أنسجة الواقع الاجتماعي والطبيعي الحقيقية تشكل الموضوع الأخاذ والمدهش في المجموعة، والتي يبدو فيها كالفينو ميتافيزيقياً أكثر من أي وقت مضى، إذ سبق له أن بدا بمظهر الفيلسوف ضمن كتاباته السابقة، إلَّا أنه هنا جعل الغلبة للوصف سواء كان هذا الوصف لموجة أو لشاطىء أو لبستان. وصاحبنا بالومار هذا لا يفعل شيئاً أكثر من المراقبة والوصف ويقدم عمليات تساؤل تمهيدية ومتزامنة.

إن شيطان التساؤل يسيطر عليه. فالأشياء والأوضاع تفرض نفسها على نظرته وتتحاور مع عينيه في تحركهما المندهش والفضولي بنوع ما من قصر النظر. وتتشارك معها وتنفصل عنها. ثم ان هذه الأشياء والأوضاع تنفذ إلى غيظ وعيه. وتثب في النهاية إلى بنية دماغه ونظام تفكيره وعند هذه النقطة يبدأ تساؤله عن لغز التوافق ما بين الكون والانسان، ما بين الطبيعة واللغة الانسانية، ما بين وحدة الأنا وتعددية الواقع. وبالطبع فإن بالومار لا يعرف أنه يبحث عن هذه الركائز الفلسفية والميتافيزيقية أو الطبيعية فقط وإنما يتصرف وكأنه عارف بها.

٣ ـ أخيراً يأتي الغراب:

وضع كالفينو في هذه المجموعة القصصية أغلب القصص القصيرة التي

كتبها حتى العام ١٩٤٩، تاريخ صدور المجموعة. وعلى سبيل المثال فإن قصته «الذهاب إلى مقر القيادة» كانت قد نشرت في صحيفة «بوليتكنيكو» التي يديرها الأديب الايطالي «ايليو فيتوريني»، لم يختلف أسلوب كالفينو في هذه النصوص عن أسلوب كتاباته الأولى سوى في بعض التركيز وخاصة على مواضيع المقاومة والقسوة الضرورية في ظروف الحرب وذلك من خلال الإشارة السريعة، الجافة، وغير الرحيمة. وزيادة على ذلك فإنه في قصة «الذهاب إلى مقر القيادة» يبدو وكأنه يقبع في مكان آخر بعيد عن حركة بطلي القصة، فهو ينظر إليهما ويزودنا بكلمات البطلين، يسجل حركاتهما من الخارج وعند النهاية فقط، وبنوع من تغيير الإتجاه ذي المغزى، نرى أن كالفينو يضع نفسه في رأس الضحية، الجاسوس الفاشي الذي أعدمه رجل المقاومة الذي أخفى حتى النهاية عن المحكوم بالموت معنى نزهتهما عبر الغابات.

هذه هي خاتمة القصة، وبلا زيادة كلمة واحدة عليها، ولا حكم لكنه يبقى حكماً ضمنياً بينما يموت الجاسوس الفاشي فإنه يفكر «يعتقد أنه قتلني، وعلى العكس من ذلك فأنا حي...» إن الشر ينتصر حتى بعد أن أقتل..

إن الدخول في بسيكولوجية الشخصيات، وكذلك التنقيب في ضوء وبريق الصور المتتابعة في دماغ شخص يتهيأ للاختفاء إلى الأبد، لا يدخل ضمن تقنية التأليف لدى كالفينو بل يخالفها. فهو بحاجة للمسافة، للبعد للتوسط بينه وبين شخصياته مثل عدسة أو منظار.

وإذا ما تساءلنا عن معنى هذا التدخل في «بسيكولوجية» شخص يموت. (بغض النظر عن الايحاءات الروائية التي تنبثق عن المؤالفة بين بعض الطروحات) نجد أن كالفينو ذا العشرين عاماً كان قد وجد في نفسه نوعاً من التضامن البيولوجي مع الضحية الأشبه ما يكون بتأنيب الضمير لكونه غير متحد مع قدره هو بالذات، وفي نفس الوقت مع دواعي الواجب لدى من يناضل من أجل قضية عادلة، لا يمكن أن تكون إطلاقاً موضوع شك.

إن المقصود هنا هو نوع من التعارض الوجداني كي لا نقول الازدواجية، الذي يصفه كالفينو دون أن يشحنه بالبلاغة.

لكن الشيء الأكثر مرارة نراه في قصة: «أخيراً يأتي الغراب». حيث نجد

شاباً فتياً يرافق مجموعة من رجال المقاومة الوطنية بعدما التقاهم صدفة وأعجبوا برماياته.

يبدأ رحلته معهم متابعاً رماياته على العصافير والأرانب وكيزان الصنوبر... كل ذلك وهو يشعر بحالة من السرور العميق. ثم نجد عدواً يختبىء خلف كتلة صخرية يعتقد أن الصبي الذي لاحقه يسدد عليه بينما يتابع هذا الأخير مهارته كصياد. فالعدو بالنسبة له ليس أكثر من هدف من بين الأهداف التي يسدد إليها. والمقصود هنا قتله لكن بنفس الهدوء واللامبالاة التي يصطاد فيها عصفوراً دورياً. فجأة يظهر الغراب الذي يحلق في السماء فوق العدو «وكالفينو يسمي العدو هنا بشكل عام بالجندي» الذي يمني نفسه بأن يركز الصبي انتباهه على الغراب. يطلق الصبي النار لكن الغراب لا يقع. فلا يجد الجندي تفسيراً لذلك إلا بأن الصبي ربما لم ير الغراب. فينهض ويشير إلى الضحية وفي تلك اللحظة تصله طلقة تستقر وسط نسر كان قد طرزه على سترته.

وفي هذا المخرج ذي الحدين «النسر المفترض» و «الغراب الحقيقي» يمكننا أن نتابع التناقض بشكل رمزي. الحقيقة «العارية» للصبي في مواجهة شارة الجندي المصطنعة والمضحكة.



أطفال بابو ناتاله(*)

من مجموعة ماركو فالدو

ليست هناك فترة من العام أكثر ظرافة وطيبة بالنسبة لعالم الصناعة والتجارة من فترة أعياد الميلاد والأسابيع التي تسبقها. إذ تتصاعد من الشوارع أصوات موسيقى القرب المزغردة، أما الشركات المقفلة، التي كانت حتى البارحة مشغولة بحساب حجم مبيعاتها وأرباحها بهدوء، فإنها تفتح قلبها للمشاعر الانسانية والابتسامة. ويصبح التفكير الوحيد لمجالس الإدارة الآن هو إشاعة البهجة في قلب أخيهم الإنسان، بإرسال الهدايا المرفقة برسائل التهنئة سواء إلى أخواتها من الشركات أو إلى الأشخاص العاديين، وتشعر كل شركة أن من واجبها شراء كمية كبيرة من البضائع التي تنتجها شركة ثانية لتقدم هداياها إلى الشركات الأخرى، هذه التي تشتري بدورها منتجات شركة أخرى لتقدمها كهدايا للشركات الأخرى. وهكذا فإن نوافذ مكاتب الشركة تبقى مضاءة حتى وقت متأخر من الليل، ومنها على الأخص نوافذ المخازن حيث يتابع العاملون عملهم لساعات إضافية بتغليف العلب والصناديق. وإلى ما وراء زجاج النوافذ المغطى بالبخار يتقدم على الأرصفة المغطاة بطبقة من الجليد نافخو القرب النازلين من جبال قاتمة غامضة ويتوقفون عند تقاطعات مركز المدينة مبهورين قليلاً بالأضواء الكثيرة وواجهات المحلات المزينة بإفراط، ينفخون، محنيي الظهور، في آلاتهم الموسيقية. وعند سماع ذلك الصوت يهدأ تنافس المصالح القوي بين رجال الأعمال ويخلون الساحة لمنافسة جديدة، لمن يقدم الهدية الأكثر تأثيراً وابتكاراً وبالشكل الأكثر أناقة.

(*) بابو ناتاله: هو اسم بابا نويل لدى الإيطاليين.

وفي شركة (سباڤ) اقترح مكتب العلاقات العامة في تلك السنة أن يتم تسليم الهدايا المرسلة إلى الأشخاص من ذوي الشأن المهم في بيوتهم من قبل رجل يرتدي ملابس (بابو ناتاله).

وقد حظيت الفكرة بالموافقة الإجماعية للمدراء. فتم شراء ثياب زينة بابو ناتاله كاملة، اللحية البيضاء والقبعة والمعطف الأحمر وفي طرفيهما الفراء الأبيض، والجزمة الطويلة. وبُدىء بتجربتها لمعرفة أي من المراسلين يناسبه ارتداؤها، لكن أحدهم كان قصير القامة لدرجة أن اللحية لامست الأرض، وواحد آخر سمين جداً لدرجة لا يمكنه ارتداء المعطف، وآخر كان شاباً يافعاً، وعلى العكس منه كان الأخير عجوزاً جداً لا جدوى من جعله يتنكر بثياب بابو ناتاله.

وبينما كان رئيس مكتب شؤون العاملين يطالب مختلف الأقسام أن يرسلوا إليه أشخاصاً آخرين يمكن أن يكونوا «بابو ناتاله» المحتمل، فإن المدراء المجتمعين كانوا يتدارسون تطوير الفكرة. فمكتب العلاقات الانسانية يريد أن يتم تسليم هدايا عيد الميلاد إلى العمال من قبل بابو ناتاله خلال حفل جماعي، أما المكتب التجاري فإنه يريدهم أن يقوموا أيضاً بجولة على المحلات التجارية، وكان جل اهتمام مكتب الدعاية ينحصر بإظهار اسم الشركة بشكل واضح، وحبذا لو ثبتت أحرف س. ب. أ. ڤ على أربع بالونات مربوطة بخيط.

كان الجميع مأخوذين بهذا الجو النشيط والودي الذي انتشر في المدينة المبتهجة والمنتجة. فلا شيء أجمل من أن تشعر حولك بجريان فيض من البضائع المادية برفقة الخير الذي يريده كل شخص للآخرين وهذا، وعلى الأخص هذا هو الشيء المعتبر ـ مثلما يُذكر صوت (الفيرولي، الفيرولي) المنبعث من القرب.

وفي المخزن كان الخير ـ المادي والروحي ـ يمر عبر يدي ماركو فالدو بقدر ما هناك من بضائع يجب أن تُحمَّل وتنزل. ولم يكن فقط التحميل والتنزيل الشيء الوحيد الذي يخصه، فقد كان يعنيه أيضاً قسم من هذا العيد العام، مفكراً أيضاً بأن هناك في الحقيقة علبة واحدة، معدة له من قبل مكتب العلاقات الإنسانية، تنتظره في تلك المتاهة بين مئات آلاف العلب. حاسباً ما

ينتظره عند نهاية الشهر حيث «راتب الشهر الثالث عشر»(*) وأجر الساعات الإضافية وسيكون باستطاعته مع تلك النقود أن يجري هو أيضاً إلى المحلات ليشتري ويشتري ويشتري كي يُهدي ويُهدي ويُهدي حسبما تفرضه أخلص مشاعره وكذلك المصالح العامة للصناعة والتجارة.

دخل رئيس قسم شؤون العاملين إلى المخزن وبيده لحية مستعارة وقال لماركو فالدو:

ـ هيه، أنت. جرب قليلاً لنرى كيف تبدو بهذه اللحية، وأردف ـ رائع! أنت بابو ناتاله. تعال إلى فوق، أسرع. ستكون لك جائزة خاصة إذا ما استطعت القيام بإيصال خمسين إرسالية إلى المنازل هذا اليوم.

وهكذا راح ماركو فالدو، المتنكر بلباس بابو ناتاله، يجتاز المدينة على مقعد دراجته الشاحنة الصغيرة المحملة بالعلب المغلفة بورق مبرقش، والمربوطة بأشرطة جميلة والمزينة بأغصان صغيرة من الدبق والبهشتة. ومع أن اللحية القطنية البيضاء كانت تسبب له حكة إلّا أنها تلزم لتحمي حنجرته من لفحات الهواء البارد.

في أول جولة قام ماركو فالدو بزيارة منزله لأنه لم يكن باستطاعته أن يقاوم رغبته بمفاجأة أطفاله، وفكر: سوف لن يتعرفوا إليَّ في البداية، من يدري كم سيضحكون بعدها!.

وجد الأطفال يلعبون على الدرج فالتفتوا إليه قليلاً قائلين: مرحباً بابا.

أحس ماركو فالدو بالخيبة فقال: لكن... ألا ترون ماذا ارتديت. فقال له بيتروتشو: وما عساك أن تكون مرتدياً؟ زي بابو ناتاله، أليس كذلك؟

ـ وهل عرفتموني فوراً؟

ـ وهل يلزم الكثير! لقد تعرفنا أيضاً على السيد سيجيز موندو الذي كان متنكراً أفضل منك!

ـ وعلى صهر حارسة بوابة العمارة!

ـ وعلى والد الطفلين التوأم اللذين يسكنان في مواجهتنا!

(*) يتقاضى الايطاليون عند نهاية كل عام مرتباً إضافياً يدعونه مرتب الشهر الثالث عشر.

ـ وعلى عم أرنستينا صاحبة الجدائل!

فسأل ماركو فالدو: وهل يرتدون جميعهم ملابس بابـو ناتـاله؟ وبـدت على صوته خيبة الأمل ليس فقط لفشله في مفاجأة عائلتـه وإنما أيضـاً لأنه شعـر بأن نفوذ شركته قد أصيب بشكل ما.

فأجابه الأطفال: أفٍ، بالطبع مثلما أنت بالضبط. بلباس بابو ناتاله كالعادة وباللحية المستعارة.

وأداروا له ظهورهم وشرعوا يلعبون من جديد بألعابهم.

إذ حدث أن طرأت الفكرة نفسها لمكاتب العلاقات العامة في شركات عـديدة في وقت واحد، فقامت بتجنيد أكبر عـدد من الأشخاص، أغلبهم من العـاطلين عن العمل والمتقاعدين والباعة الجوالـين كي تقوم بـإلباسهم المعطف الأحمـر واللحية القطنية البيضاء. وبعد أن استمتع الأطفال في المرات الأولى بالتعرف على معارفهم وأشخاص الحي تحت تلك المـلابس التنكريـة فقد اعتـادوا بعد ذلك بقليل على تلك اللعبـة ولم يعد أحـد منهم لينشغل بهـا. ويمكن القول أن اللعبـة التي كانـوا منشغلين بهـا تمتعهم كثيراً إذ أنهم اجتمعـوا على قـرص الدرج جالسين على شكل دائرة، سألهم ماركـو فالـدو: هل يمكنني أن أعـرف أي مؤامرة تدبرون؟

ـ دعنا بسلام يا أبي، علينا أن نحضِّر الهدايا.

ـ هدايا لمن؟

ـ لطفل فقير. علينا أن نبحث عن طفل فقير ونقدم له الهدايا.

ـ ومن قال لكم ذلك؟

ـ هذا موجود في كتاب القراءة.

كاد ماركو فالدو أن يقول لهم: «أنتم أنفسكم الأطفال الفقراء!» لكنـه خلال ذلك الأسبوع كان مقتنعاً للغاية باعتبار نفسه أحد سكـان أرض النعيم حيث الجميع يشترون ويستمتعون ويتبادلون الهدايا، ولم يكن يبدو لـه التحدث عن الفقر أمراً ينبع من التربية الجيدة ولذلك فقد فضَّل أن يصرح لهم:

ـ لم يعد هناك من وجود لأطفال فقراء!

فنهض ميكيلينو وسأله: ألهذا يا أبي لا تحمل إلينا الهدايا؟ فأحس مـاركو

فالدو بقلبه ينقبض وقال بسرعة: عليَّ الآن أن أكسب أجر العمل الإضافي وبعد ذلك سأجلب لكم الهدايا. فسأله فيليبتو:

– كيف ستكسب ذلك؟

فأجابه ماركو فالدو: بإيصال الهدايا.

– لنا؟

– لا، لأناس آخرين.

– ولماذا ليس لنا؟ سيكون ذلك أسرع بالنسبة لك.

حـاول ماركـو فالـدو أن يشرح لهم فقال: لأنني لست بـابـو نـاتـالـه قسم العلاقات الإنسانية، وإنما أنا بابو ناتاله قسم العلاقات العامة هل فهمتم؟

– لا.

وبما أنه كان يرغب بطريقة ما بالحصول على عفوهم لأنه حضر إليهم فارغ اليدين فكر أن يأخذ معه ميكيلينو ليرافقه في جـولة تسليم الهـدايا فقـال وهو يمتطي مقعد دراجته الشاحنة: صبراً. إذا كنت مطيعاً بإمكانك أن تأتي معي لترى أباك وهو يحمل الهدايا إلى الناس. فقال ميكيلينو: هيا بنا. ربما سـأجد طفلاً فقيراً. وقفز ممسكاً بكتفي والده.

وفي شوارع المدينة لم يكن ماركو فالدو يقابل إلاَّ رجال «بابو ناتاله» آخرين حمراً وبيضاً مطابقين له بالضبط وكلهم يقودون شاحنات صغيرة، أو دراجات ذات شـاحنة، أو يفتحـون أبواب المحـلات التجاريـة للزبـائن المحملين بعلب الهدايا ويساعدونهم على نقل مشترياتهم إلى السيارة. وكانت تبدو على جميـع هؤلاء الرجال «بابو ناتاله» هيئة تركيز وانشغال وكأنما هم العاملون على خدمة وصيانة الآلات الضخمة للأعياد.

مثلهم كـان ماركـو فالـدو منهمكاً ينتقـل من عنـوان إلى آخـر، مكتـوب في القـائمة. ينـزل عن مقعده ويخـرج العلب من شاحنتـه فيأخـذ واحـدة منهـا ويقدمها لمن يفتح له الباب مردداً جملة:

– «شركـة سبـاف تتمنى لكم عيـد ميـلاد سعيـد وسنـة طيبـة» ويـأخـذ الإكرامية.

يمكن أن تكون الإكرامية معتبرة أيضاً. وباستطاعة ماركو فالدو أن يقول عن نفسه إنه راض . لكنه كان يشعر بأن شيئاً ما ينقصه. ففي كل مرة وقبل أن يقرع جرس الباب، وخلفه ميكيلينو يتبعه، كان يتذوق مسبقاً الدهشة التي ترتسم على وجه من يفتح له الباب لأنه سيجد نفسه أمام بابو ناتاله شخصياً، وكان ينتظر منهم ابتهاجاً وفضولاً وعرفاناً بالجميل. لكنه استقبل في كل مرة مثلما يستقبل ساعي البريد الذي يحمل الصحيفة كل يوم.

قرع جرس باب بيت فخم. فتحت له المربية وقالت:

– آه، علبة أخرى أيضاً، من أرسلها؟

– تتمنى لكم شركة سباق....

– حسناً، أحملها إلى هنا – وسبقت بابو ناتاله خلال ممر مليء بأكوام من السجاد والأواني الصينية المزخرفة. وتبع ميكيلينو أباه بنظرات مبهورة. ثم فتحت المربية باباً من الزجاج ودخلا إلى قاعة ذات سقف عال جداً لدرجة أن شجرة بلوط كبيرة وضعت فيها، كانت شجرة عيد ميلاد مضاءة بكرات زجاجية من مختلف الألوان علقت على أغصانها الهدايا والحلويات من كل الأصناف والأشكال ومن السقف تتدلى ثريات ثقيلة من الكريستال، وقد تعلقت الأغصان العلوية بالأقراط المتلألئة. وفوق طاولة ضخمة وضعت الأطقم الكريستالية والفضية وعلب الفواكه المجففة وصناديق المشروبات. أما الألعاب المبعثرة على سجادة كبيرة فقد كانت كثيرة وكأنها في محل بيع للألعاب، وعلى الأخص الألعاب الألكترونية المعقدة وموديلات سفن الفضاء. وفي زاوية خالية على تلك السجادة كان هناك طفل منبطح على بطنه في حوالي التاسعة من العمر ذو هيئة مستاءة وضجرة يتصفح كتاباً مصوراً وكأن كل ما حوله لا يعنيه. قالت المربية: جان فرانكو، انهض يا جان فرانكو. ألا ترى أن بابو ناتاله قد عاد مع هدية أخرى؟

– ثلثمائة وإثنتا عشر – قال الطفل متنهداً دون أن يرفع عينيه عن الكتاب وأردف: ضعيها هناك.

فقالت المربية: إنها الهدية رقم ثلثمائة واثنتا عشر التي تصله إن جان فرانكو طفل شاطر بالحساب ولا يخطىء العدَّ أبداً، إنه مولع جداً بالحساب.

غادر ماركو فالدو وميكيلينو المنزل منسلين على أطراف أصابعهما. سأل ميكيلينو أباه: بابا، هل هذا الطفل طفل فقير؟ كان ماركو فالدو مشغولاً بإعادة ترتيب حمولة شاحنته فلم يجب على الفور. لكنه أسرع بعد لحظة بالاحتجاج: فقير؟ ماذا تقول؟ هل تعلم من هو أبوه؟ إنه رئيس اتحاد إنماء مبيعات أعياد الميلاد! إنه المدير الآمر.

وتوقف عن الكلام لأنه لم ير ميكيلينو، فصاح:

– ميكيلينو، ميكيلينو! أين أنت؟ لقد اختفى. وفكر «لا بد وأنه كان ينظر حوله ورأى بابو ناتاله آخر يمر من هنا فظنه أنا ولحق به».

تابع ماركو فالدو جولته وهو قلق نوعاً ما على ولده ولم يكن يرى حلول الساعة التي يعود فيها إلى البيت.

وفي البيت وجد ميكيلينو مع إخوته على أحسن حال.

– إنتبه إليَّ قليلاً، أنت. أين ذهبت واختفيت؟

– إلى البيت لأحمل الهدايا... أجل الهدايا لذلك الطفل الفقير...

– أوه! من؟

– ذلك الطفل الذي كان حزيناً للغاية... الطفل الموجود في تلك الفيلا حيث شجرة عيد الميلاد.

– إليه؟ ولكن أي هدايا يمكنك أن تقدمها له أنت؟

– أوه، لقد أعددنا له جيداً... ثلاث هدايا مغلفة بورق فضي.

وتدخل أخواه: لقد ذهبنا جميعنا معاً لنحملها إليه! ليتك رأيت مدى فرحته بها!

فقال ماركو فالدو: تصوروا! كان بحاجة لهداياكم بالضبط كي يكون مسروراً!

– أجل، أجل فرح بهدايانا... لقد هرع على الفور ليمزق الورق ويرى ماذا كانت....

– وماذا كانت؟

ـ الأولى مطرقة: مطرقة خشبية ذات رأس ضخم مدور.

ـ وهو؟

ـ قفز فرحاً بها وتناولها وبدأ باستعمالها!

ـ كيف؟

ـ لقد كسَّر كل الألعاب! وكل الكريستال! ثم تناول الهدية الثانية.

ـ وماذا كانت؟

ـ مقلاع حجارة. كان عليك أن تراه وترى مدى سعادته به لقد قصف به كل الكريات الزجاجية المعلقة على شجرة الميلاد ثم انتقل إلى الثريات.

ـ كفى، كفى لا أريد سماع المزيد! و... الهدية الثالثة؟

ـ لم يعد لدينا شيء نهديه له. وهكذا فإننا غلفنا له ضمن ورقة فضية علبة كبيرة من علب الكبريت التي تستخدم في المطبخ. وكانت تلك الهدية هي التي أسعدته أكثر من غيرها إذ أنه قال: «إنهم لا يدعونني ألمس الكبريت إطلاقاً!» وبدأ باشعالها،... و....

ـ و...؟

ـ أضرم النار في كل شيء.

صرخ ماركو فالدو وقد غرز يديه في شعره وراح يشده: لقد خرب بيتي.

وفي اليوم التالي شعر ماركو فالدو عندما حضر إلى الشركة بتكاثف العاصفة فارتدى ثياب بابو ناتاله بسرعة، بسرعة وحمَّل على شاحنته علب الهدايا التي يجب تسليمها مندهشاً من أن أحداً لم يقل له شيئاً بعد. إلى أن رأى ثلاثة من رؤساء الأقسام قادمين نحوه وهم رئيس قسم العلاقات العامة، الدعاية، والمكتب التجاري.

فقالوا له: قف! أفرغ كل شيء فوراً!

فقال ماركو فالدو لنفسه وقد كان يتوقع أن يجد نفسه مسرحاً من عمله:

ـ ها نحن قد وصلنا إلى ذلك!

قال له رؤساء الأقسام: بسرعة! من اللازم أن نستبدل العلب... لقد افتتح اتحاد إنماء المبيعات في عيد الميلاد حملة الترويج للّعبة المدمرة!

فعلق أحدهم: هكذا فجأة... كان بإمكانهم أن يفكروا بذلك مسبقاً...

– إنها اكتشاف فجائي للرئيس – شرح أحدهم – يبدو أن ابنه قد تلقى بعض الهدايا من الألعاب المتطورة جداً وأعتقد أنها يابانية. ولأول مرة رآه يتلهى بها مستمتعاً. وأضاف الثالث: إن أهم ما في الأمر هو أن هذه الهدية المدمرة تصلح لتدمير الألعاب ومن كل نوع وهذا ما يلزم لتنشيط تواتر الاستهلاك وإعطاء السوق حيوية ما... كل ذلك في وقت وجيز جداً، وعلى مرمى من يد طفل... لقد رأى رئيس الاتحاد إنفتاح أفق جديد وإنه الآن في سابع سماء من فرط حماسه...

سأل ماركو فالدو بصوت خافت: لكن هل دمَّر هذا الطفل أشياء كثيرة حقاً؟

– من الصعب القيام بعملية حسابية حتى ولو كانت تقريبية على اعتبار أن المنزل قد احترق...

عاد ماركو فالدو إلى الشارع المضاء، ليلاً، والمكتظ بالأمهات والأطفال والأعمام والأخوال والأجداد وعلب الهدايا والبالونات والأحصنة الهزازة وأشجار عيد الميلاد والرجال المتنكرين بزي بابو ناتاله، والدجاج والديوك الرومية وكعك العيد وزجاجات المشروبات ونافخي القرب ومنظفي المداخن وبائعي الكستناء المشوية الذين يجعلون أطباقاً من الكستناء تقفز على نار الموقد الأسود المتوهج.

وبدت له المدينة أصغر بكثير، وكأنها جمعت في أنبوب زجاجي مضاء مدفونة في قلب غابة سوداء بين جذوع أشجار الكستناء المعمرة مئات السنين، ورداء من الثلج لا حدود له. ومن جهة ما من الظلام يسمع عواء الذئب، والأرانب البرية مختبئة في جحورها المدفونة تحت الثلج في التربة الحمراء الدافئة تحت طبقة من قشور ثمار الكستناء.

خرج أرنب بري أبيض اللون فوق الثلج وحرك أذنيه ثم جرى تحت ضوء القمر. لكنه كان أبيض ولم يكن يُرى، كأنما لا وجود له. كانت قوائمه الصغيرة فقط تترك بصماتها الخفيفة على الثلج مثل أوراق شجيرة البهشة.

حتى الـذئب لم يكن بالإمكـان رؤيته أيضـاً، لأنه كـان أسود ويقبـع في مكان مظلم أسود من الغابة، إلَّا عندما يفتح فمه فتظهر أنيابه البيضاء الحادة.

كـان هناك خط تنتهي عنـده الغابـة الغارقـة في السواد ويبـدأ معه الثلـج الأبيض الناصع حيث يجري الأرنب البري هنا، والذئب هناك.

رأى الذئب آثار قـوائم الأرنب البري عـلى الثلج فتتبعهـا محتفظاً بنفســه دائمـاً ضمن المنطقة السـوداء حتى لا يرى. وعنـد النقطة حيث تنتهي آثـار القوائم لا بد وأن يكون الأرنب البري هناك، خرج الذئب من المنطقة السوداء وفتح فمه مكشراً عن أنيابه الحادة وعض الهواء.

كان الأرنب البري إلى أبعد من هناك بقليل، غير مرئي يفرك أذنـه بإحـدى قوائمه فهرب قافزاً.

هل هو هنا؟ هناك؟ لا، أهو أبعد من هناك بقليل؟

كـان الشيء الوحيـد الذي يُـرى هو امتـداد الثلج الأبيض الشبيـه بهـذه الصفحة.

غابة على الأوتوستراد

من مجموعة ماركو فالدو

للبرد ألف شكل، والف طريقة يتحرك بها في العـالم. فهو يعـدو مثل قطيـع من الخيـول عـلى شـاطىء البحـر، وينقض مثـل سرب من أسراب الجـراد في الريف، أما في المدن فإنه يحل مثل نصل سكين فيقطع الشوارع ويتسلل عبـر شقوق البيوت غير المدفأة.

في ذلـك المساء نفـذت في منزل مـاركو فـالدو آخـر قطـع الحطب، وجلست العائلة بأكملها متدثرة بمعاطفها وهي تنظر إلى قطع الجمر تشحب في المدفأة، ومن أفواه أفرادها تتصاعد سحب البخار مـع كل تنفس. لم يعـد أحد منهم يتكلم ونابت السحب بالتكلم عنهم فكانت الزوجـة تطلقها طـويلة طـويلة مثـل التنهدات، والأولاد ينفثونها على مجموعات متناغمة مثل فقاعات الصابون، أما ماركو فـالدو فقـد كان ينفخهـا إلى الأعلى بـلا انتظام أشبـه بومضـات نبوغ سرعان ما تختفي.

وأخيراً عزم ماركو فالدو على القيام بأمر ما ـ سأذهب لأبحث عن الحطب، من يدري أني لن أجد شيئاً منه ـ فـدس أربع أو خمس صحف بـين سترتـه وقميصه ليجعل منهـا درعاً يقيـه ضربات الهـواء، وخبأ تحت معطفـه منشاراً طويلاً. وهكذا خرج في الليل تتبعه عائلته بنظراتها الطـويلة المفعمـة بالأمـل، مصدراً صوت حفيف أوراق مع كل خطوة من خطواته ويبرز معها المنشار بين حين وآخر من أعلى ياقة معطفه.

إنها لكلمة سهلة! «الذهـاب للبحث عن الحطب في المدينـة». توجـه ماركـو فالدو على الفور نحو قطعة من حديقة عامة تقع بين طريقين. كان المكان خـالياً بأكمله. تفحص ماركو فـالدو الشجـيرات العاريـة واحدة تلـو الأخرى مفكـراً بعائلته التي تنتظره بأسنان مصطكة.

كـان ميكيلينو الصغـير، الذي تصطـك أسنانـه من البرد، يقـرأ كتابـاً من الحكايات استعاره من مكتبة المـدرسة الصغـيرة، ويتحدث الكتـاب عن طفل، إبن لأحد الحطابين، خرج بفـأسه ليقطـع الحطب من الغابـة. فقال ميكيلينـو لنفسه ـ هذا هو المكان حيث يجب أن نذهب، إلى الغابة! هناك حيث الحطب!. وقد ولد وترعرع في المدينة لذلك لم يكن قد رأى أبداً غابة ولا حتى عن بعد.

اتفق مع أخويه قارناً القول بالفعل. فـأخذ أحـدهم فأسـاً والثاني خطـافاً والثالث حبلاً وحيَّوا أمهم ثم ذهبوا للبحث عن الغابة.

ساروا أولاً في المدينة المضاءة بالمصابيح فلم يروا إلَّا المنـازل. أما الغـابات فلم يعثروا على أثر ظل لها. ورغم أنهم التقوا ببعض العابرين القليلـين لكنهم لم يجرؤوا على سؤالهم أين توجد الغابة. إلى أن وصلـوا وهم على هـذه الحال إلى حيث تنتهي بيوت المدينة وحيث تصبح الطريق أوتوستراداً.

رأى الأطفـال الغابـة على جـانبي الطريق حيث كـانت تمنع رؤيـة السهل نباتات كثيفة من الأشجار الغريبة لها جذوع رفيعة جداً مستقيمـة أو مائلـة، ولها جمَّة مفلطحة وممتدة من أكثر الأشكال غرابة ومن أغرب الألوان أيضـاً، حيث كانت تضيئها السيارات العابرة بأضواء مصابيحها فتبدو الأغصان على شكل معجون الأسنان أو وجوه، أجبان، يد، آلة حلاقة، زجاجة، بقرة، أو إطار سيارة وجميعها مزينة بأوراق من حروف الأبجدية.

قال ميكيلينو: مرحى! هذه هي الغابة!

كـان أخواه ينظـران إلى القمر من بـين تلك الظـلال الغريبـة مسحـورين، وصاحا: كم هو جميل...

فدعاهما ميكيلينو فوراً، مذكراً إياهمـا بالهـدف الذي من أجلـه جاؤوا إلى هناك، الحطب. وهكذا قطعوا شجرة صغيرة على شكل زهرة الـربيع الصفـراء وأحالوها إلى قطع حملوها إلى البيت.

وعندما عاد ماركو فالدو إلى البيت بحمولته الضئيلة من الأغصـان الرطبـة وجد المدفأة موقدة.

فسأل مشيراً إلى بقايا اللوحة الإعلانية التي احترقت بسرعة كبيرة باعتبار أنها مصنوعة من الخشب المعاكس:

ـ من أين جلبتم هذه؟

فقال الأطفال: من الغابة!

ـ وأية غابة؟

ـ تلك الموجودة على الأوتوستراد. إنها ملأى بها!

ولأنه رأى أن الأمر بسيط هكذا، وأن هناك حاجة من جديد للحطب فإنه وجد من الأجدى له أن يفعل مثل الأطفال، عاد ماركو فالدو للخروج بمنشاره وذهب إلى الأوتوستراد.

كان الشرطي استولفو من شرطة المرور قصير النظر وبحاجة لاستعمال النظارات ليلاً وهو يقود دراجته أثناء الخدمة. إلَّا أنه لم يكن ليجرؤ على البوح بذلك مخافة أن يشكل ضرراً على مستقبله الوظيفي.

أُبلغ في ذلك المساء عن واقعةٍ أن عصابة من الأطفال يقطعون اللوحات الاعلانية على الأوتوستراد. فانطلق الشرطي استولفو بمهمة تحقيقٍ.

وعلى جانبي الطريق رافقت غابة الصور الغريبة المومية له والناصحة استولفو الذي كان يتفحصها الواحدة تلو الأخرى وهو يدير عينيه القصيرتي النظر. وها هو ضوء مصباح الدراجة يفاجىء طفلاً صغيراً متسلقاً على لوحة ما. كبح استولفو جماح دراجته: هيه! أنت ماذا تفعل هناك؟ هيا انزل فوراً!

لكن ذاك لم يتحرك، بل كان يمد له لسانه. اقترب استولفو منه فرأى أنها صورة دعاية لنوع من الأجبان تصور طفلاً يلعق شفتيه.

فقال استولفو: هكذا إذاً ـ وعاد أدراجه بأقصى سرعة.

بعد ذلك بقليل وفي ظل لوحة ضخمة أضيء وجه حزين خائف فصاح: قف هناك! لا تحاول الهرب! لكن أحداً لم يهرب إنه وجه إنساني متألم رُسم وسط قدم مليئة بالمسامير اللحمية. إنها دعاية مفتت المسامير اللحمية، فقال أستولفو:

ـ آه، عفواً. وانطلق مبتعداً.

أما لوحة الاعلان عن حبوب للصداع فقد كانت تصور رأساً ضخماً لرجل وضع يديه على عينيه من شدة الألم. مر أستولفو فأضاء المصباح ماركو فالدو

المتسلق على قمة اللوحة وهو يحاول أن يقطع بالمنشار قطعة منها. وقد حاول أن يتضاءل بعد أن بهره الضوء، ومكث هناك بلا حراك ممسكاً بأذن من الرأس وقد وصل منشاره إلى منتصف الجبهة.

درس استولفو الإعلان بعناية وقال: آه، أجل إنها حبوب «ستابا!». إعلان فعال واكتشاف ذكي. إن ذلك الرجل الصغير فوق مع ذلك المنشار يعني أن الصداع النصفي يقص الرأس إلى نصفين! لقد فهمتها فوراً! ورحل من هناك...

ران الصمت والبرد، فتنهد ماركو فالدو متنفساً الصعداء وجلس على حامل اللوحة غير المريح وعاد إلى عمله، وفي السماء المضاءة بالقمر انتشر النعيق المخفف للمنشار وهو يقص الخشب.

الصحفة(*)

من مجموعة ماركو فالدو

إن مباهج ذلك الوعاء المدور والعميق الذي يدعى «بالصحفة» ترتكز قبل كل شيء على كونه قابلاً للفك. كما أن حركة فك الغطاء تجعل اللعاب يسيل في الفم خاصة إذا كان الشخص لا يعرف أيضاً ما بداخلها لأن زوجته على سبيل المثال هي التي تعد له الصحفة كل صباح. فما أن ينزع غطاء الصحفة حتى يُرى الطعام فيها متراصاً، كالسلامي والعدس أو البيض المسلوق والشمندر أو ربما عصيدة من دقيق الذرة مع السمك المقدد، وكل ذلك مرتب جيداً في مساحة تلك الدائرة مثل القارات والبحار على خرائط الكرة الأرضية. وإذا ما كان الطعام قليلاً أيضاً فإنه يبهر بنوع من الأشياء المغذية والمتراصة. وما أن ينزع الغطاء حتى يصبح صحناً وهكذا يمكن الحصول على وعاءين والبدء بفرز المحتوى.

ما أن يفك غطاء الصحفة ويشتم رائحتها بسرعة فإن العامل اليدوي ماركو فالدو يمد يده إلى الملعقة والشوكة والسكين التي يحملها معه دائماً في جيبه ملفوفة ضمن صرة منذ أن بدأ يأكل طعامه بالصحفة عند منتصف النهار بدلاً من العودة إلى المنزل. تقوم أولى ضربات شوكته بإيقاظ الأطعمة الفاترة قليلاً وإعطائها الأهمية والسحر لطبق قُدِّم على الطاولة منذ قليل من تلك الأطعمة التي حفظت داخلها مسبقاً لساعات عديدة. عندئذ يرى أن الطعام قليل فيفكر: «من المناسب أكله ببطء» ولكن أولى اللقمات السريعة المتلهفة كانت قد حُملت سابقاً إلى الفم.

عند تذوقه لأول وهلة يشعر بكآبة الطعام البارد لكن المباهج سرعان ما تبدأ

(*) الصحفة بالعامية / السفرطاس /.

من جديد عند إحساسه بطعم مائدة العائلة منقولة على سيناريو غير معهود. بدأ الآن ماركو فالدو بمضغ طعامه ببطء جالساً على مقعد في الشارع قرب مكان عمله على اعتبار أن منزله بعيد وأن الذهاب إليه عند منتصف النهار يجعله يضيع الوقت ويستهلك بعض ثقوب بطاقة الترام. لهذا فهو يحمل معه غداءه ضمن الصحفة المشتراة لهذا الغرض ويأكل في الهواء الطلق ناظراً إلى المارة من الناس ثم يشرب من سبيل ماء. وإذا كان الوقت خريفاً وهناك شمس فإنه يختار الأماكن التي يصل إليها بعض من الأشعة مستخدماً الأوراق الحمراء التي تتساقط من الأشجار كمنشفة، كما تذهب قشور السلامي إلى الكلاب الشاردة التي لا تتأخر حتى تصبح من أصدقائه، وأما فتات الخبز فتلتقطها عصافير الدوري في لحظة عدم مرور أحد ما في الشارع.

فكر وهو يأكل: لماذا يسرني طعم طبخ زوجتي وأنا أجده هنا بينما على العكس من ذلك في البيت، بين الشجار والبكاء والديون التي تطلع علينا مع كل نقاش، لا يسعني تذوقه؟ ثم تذكر: ها قد تذكرت الآن هذه هي بقايا عشاء البارحة، وقد عاوده اليأس مجدداً، ربما لأن عليه أن يأكل البقايا الباردة الزنخة قليلاً لأن ألمنيوم الصحفة نقل مذاقاً معدنياً إلى الأطعمة. لكن التفكير الذي يدور في ذهنه هو: ها هي فكرة دوميتيللا تفلح بجعلي أتذوق الغداء أيضاً وأنا بعيد عنها.

تنبه في تلك اللحظة إلى أنه وصل تقريباً إلى النهاية، ويبدو له من جديد أن ذلك الصحن هو شيء ما شهي جداً ونادر فيأكل بحماسة وتفانٍ آخر البقايا الموجودة في قاع الصحفة، تلك البقايا التي لها طعم المعدن أكثرَ من غيرها. ثم يعاوده الحزن مجدداً وهو يتأمل الوعاء الفارغ الملوث بالدسم.

حينئذ يغلف كل شيء ويضعه في جيبه وينهض، ولكن ما زال الوقت باكراً للعودة إلى العمل، وتقرع الملعقة والشوكة والسكين في جيوب سترته الواسعة بصخب على الصحفة الفارغة. ويذهب ماركو فالدو إلى خمارة حيث يجعلهم يسكبون له كأساً طافحاً، أو يحتسي فنجاناً من القهوة في مقهى ما، ثم ينظر إلى شطائر الحلوى في الواجهة الزجاجية، وكذلك إلى علب السكاكر والنوغا ويقنع نفسه بأنه ليس صحيحاً أنه يشتهيها وأنه لا يشتهي أي شيء، وينظر متشاغلاً للحظة إلى قدمه كالطفل ليقنع نفسه أنه يريد خداع الوقت لا

الشهية. ثم يعود أدراجه إلى الشارع وقد ازدحمت حافلات الترام من جـديد وآذنت ساعة العودة إلى العمل فيتوجه إليه.

يحدث أن تشتري زوجتـه دوميتيللا، لأسبـابها الخـاصة، كميـة كبيرة من السجق فيجد ماركو فالدو السجق واللفت على العشـاء لثلاث أمسيـات. لا بد وأن ذلك السجق من لحم الكلاب فقد كانت رائحته وحدهـا تكفي لجعله يفقـد الشهية على الفور. أما بالنسبة للفت فإن تلك الخضار الشاحبة الهاربـة كانت النوع الوحيد من الخضار الذي لم يستطع ماركو فالدو أن يطيقه أبداً.

وعند منتصف النهار ها هو من جديد السجق واللفت البارد والدسم هنـاك في الصحفـة. ناسيـاً كيف كان، وبـدون أن يتذكـر ما قـد أكله البـارحة عـلى العشاء، فقد كان يفك الغطـاء دائماً بفضـول وشراهة ويشعـر كل يـوم بخيبة الأمل نفسها. في اليوم الرابـع، أنشب الشوكـة داخلها واشتم الـرائحة مـرة أخـرى أيضاً فنهض عن المقعـد وتوجـه بشرود نحـو الطـريق حـامـلاً بيـده الصحفة مفتوحة. كان المارة يرون هذا الرجل الذي كـان يتمشى وبيده شـوكة وفي اليد الأخرى إناء فيه السجق، يبدو وكأنه لم يقرر بعد أن يحمل إلى فمـه أول لقمة. ومن نافذة قال له طفلٌ ما: هيه، أنت يا رجل!

رفع ماركو فالدو عينيه. من الطابق المرتفـع من ڤيلا رجـل غني كان يطـل طفل ساندأ كوعيه على مقدمة النافذة حيث كان أمامه صحن ما.

ـ ايه، أنت يا رجل! ماذا تأكل؟

ـ سجق ولفت!

ـ هنيئاً لك. قال له الطفل.

فقال له ماركو فالدو بغير وضوح: ايه...

ـ انظر إن عليَّ أن آكل النخاع المقلي...

نظر ماركو فالـدو إلى الصحن في مقدمـة النافـذة. كان فيـه النخاع المقـلي الطري والمجعد مثل ركام من الغيوم فاهتزت فتحتا منخريه، فسأل الطفل:

ـ لماذا، ألا يعجبك النخاع؟

ـ لا، لقد حبسوني هنا عقاباً لي لأنني لا أريد أن آكله ولكنني سأرمي به من النافذة.

ـ وهل يعجبك السجق؟

ـ أوه، أجل يبدو كسمكة السلور... نحن لا نأكله أبداً في بيتنا...

ـ إذاً أعطني أنت صحنك وسأعطيك صحني.

ـ فلتعش!

كان الطفل فرحاً فأعطى للرجل صحنه المصنوع من الخزف الصيني وشوكته الفضية المزخرفة بأكملها، وأعطاه الرجل الصحفة مع شوكة القصدير.

وهكذا شرع الاثنان يأكلان معاً، الطفل على مقدمة النافذة وماركو فالدو على مقعد هناك قبالته، كانا معاً يتلذذان بالطعام، يلعقان شفاههما ويقول أحدهما للآخر أنه لم يتذوق أبداً طعاماً لذيذاً مثله.

هكذا إلى أن ظهرت خلف كتفي الطفل المربية واضعة يديها عليهما أيضاً.

ـ سيدي الصغير! يا إلهي ماذا تأكل؟

ـ سجق. قال لها الطفل.

ـ ومن الذي أعطاه لك؟

ـ ذلك السيد الجالس هناك.

وأشار إلى ماركو فالدو الذي قطع مضغه البطيء والمثابر للقمة من النخاع.

ـ ارمه! ماذا أشم! ارمه خارجاً!

ـ لكنه طيب...

ـ وصحنك؟ والشوكة؟

ـ مع السيد... وأشار مجدداً إلى ماركو فالدو الذي يمسك بالشوكة في الهواء وقد شك بها قطعة مقضومة من النخاع.

فشرعت تلك تصرخ: إلى اللص! إلى اللص! الشوكة والصحن!.

نهض ماركو فالدو ونظر أيضاً للحظة إلى بقية المقالي المتروكة واقترب من

النافذة ووضـــع الصحن والشوكـة على مقـدمة النـافذة ورمق المـربية بنظـرة احتقار وانسحب. وسمع صوت تدحرج الصحفة عـلى الرصيف وبكـاء الطفل وارتطام النافذة التي أغلقت بفظاظـة. انحنى ليلتقط الصحفة والغطـاء، كانـا مبعجين قليلاً ولم يعد الغطاء ليغلق جيداً فوضـــع كل شيء في جيبـه ومضى إلى عمله.



الحمام البلدي

من مجموعة ماركو ڤالدو

نادراً ما تمر بالمدينة الدروب التي تعبرها الطيور المهاجرة نحـو الشمال أو الجنوب، في الخريف أو الربيع. فأسراب الطيور تشق السماء عالية فوق تـلال الحقول المثلمة وأطراف الغابات وتبدو تارة وكأنها تتبع الخط المتعـرج لنهر أو أخـدود واد ما، وتـارة أخرى تتبـع مسارات الهـواء الخفيـة. لكنهـا تنعطف مبتعدة نحو الفضاء ما أن تظهر أمامها سلاسل أسطحة البنايات في المدينة.

ومع ذلك ظهر، ذات مرة، سرب من طيور القطا في قسم من سماء شارع في المدينة. كان ماركو ڤالدو الشخص الوحيد الذي لمحه إذ أنه يمشي دائماً وأنفه مرفوع وهـو يرنـو إلى السماء. كـان يقود حينهـا شاحنـة صغيرة ذات ثـلاث عجلات وقد أطلق لها العنان حينما شاهد الطيور وكأنه يطـاردها مثـل صياد مأخوذ بأحلام اليقظة، مع أنه لم يسند إطـلاقاً إلى كتفـه بندقيـة إلَّا بندقيـة الجندي.

كان مستمراً على هذا النحـو بقيادة شـاحنته، ومتـابعاً الطيـور وهي تطير حينمـا وجد نفسـه وسط تقاطـع طرق، وقـد أضاءت الإشـارة الحمراء، بـين السيارات وكاد أن يُصدم من قبلها على بعد شعـرة منها. وبينمـا كان شرطي المرور بوجهه المحمر غضباً يكتب اسمه وعنوانه في دفتره كان مـاركو ڤـالدو لا يـزال يبحث بنظره عن تلـك الأجنحة المحلقـة في السماء، إلا أنهـا كانت قـد اختفت.

وفي الشركة حيث يعمل سببت له المخالفة توبيخاً لاذعاً، إذ صاح به رئيس القسم السيد ڤيليلمو: حتى إشارات المرور لا تفهمها؟ إلى ماذا كنت تنظر أيها الأبله؟. فأجابه: كنت أنظر إلى سرب من القطا.

ـ ماذا؟ ولمعت عينا السيد ڤيليلمو الذي كان رجلاً عجوزاً وحكى له ماركو ڤالدو القصة.

قال رئيس القسم الذي أصبح مبتهجاً للغاية وقد نسي حينئذ فورة غضبه: يوم السبت سآخذ معي كلبي وبندقيتي!. لقد بدأت هجرة الطيور في أعالي التلال ومن المؤكد أن الصيادين قد أفزعوا ذلك السرب مما جعله يميل نحو المدينة.

لم يتوقف عقل ماركو ڤالدو طيلة ذلك اليوم عن التفكير وهو يدور مثل حجر الطاحون. «إذا ما أصبحت التلال تعج بالصيادين، كما هو متوقع، فإن الله وحده يعلم كم من طيور ستعنيها المدينة، وإذا ما أحسنت التصرف فإنني سآكل يوم الأحد قطاة مشوية».

كان سطح البناية التي يسكن فيها ماركو ڤالدو مستوياً وقد نصبت فوقه أسلاك معدنية لنشر الغسيل. صعد ماركو ڤالدو إلى السطح مع ثلاثة من أبنائه، حاملين معهم صفيحة صغيرة من الدبق وفرشاة وكيساً من الذرة، وبينما كان الأطفال ينثرون حبوب الذرة في كل مكان راح هو يدهن الحواجز والأسلاك وأفاريز المداخن بالدبق، وقد أفرط في استخدام الدبق لدرجة كاد معها فيليبتو أن يلتصق بالدبق وهو يلعب.

في تلك الليلة حلم ماركو ڤالدو بالسطح مغطّى بطيور القطا العالقة بالدبق التي تنتفض. أما زوجته دوميتيللا الأكثر طمعاً وكسلاً فقد حلمت ببط محمر مسبقاً موضوع على المواقد كما حلمت ابنتها الرومانسية ايزولينا بالطائر الطنان لتزين قبعتها بريشه. بينما حلم ميكيلينو بأن يجد أحد طيور اللقلق.

وفي اليوم التالي كان أحد الأطفال يستطلع الأمر على السطح، فيطل برأسه قليلاً من المنور كي لا تفزع الطيور، في حالة كونها تهم بالهبوط على السطح. ثم يعود إلى الأسفل لينقل الأخبار. لم تكن الأخبار سارة إطلاقاً إلى أن عاد «بيتروتشو» حوالي منتصف النهار وهو يصرخ: «إنها هنا! يا أبي! تعال!».

صعد ماركو ڤالدو إلى السطح ومعه كيس. كانت هناك حمامة مسكينة عالقة وملطخة بالدبق، حمامة رمادية من تلك الحمائم الأليفة المعتادة على الناس وعلى ضوضاء الساحات العامة. ترفرف حولها حمائم أخرى تتأملها

بحزن وهي تحاول تخليص أجنحتها من عصيدة الدبق الذي حطت عليه بشكل خاطىء.

كان أفراد عائلة ماركو ڤالدو يمصون لبَّ عظام تلك الحمامة المشوية الهزيلة عندما سمعوا طرقاً على الباب.

كانت تلك خادمة صاحبة المنزل. قالت: إن سيدتي تريدك! تعال في الحال!

ولأنه كان قد تأخر عن دفع إيجار البيت مدة ستة أشهر وكان يخشى الإخلاء، ذهب ماركو ڤالدو قلقاً جداً إلى بيت السَّيدة في الطابق الأول. وما أن دخل إلى قاعة الجلوس حتى رأى زائراً يجلس فيها. إنه الشرطي ذو الوجه الأحمر الغاضب.

قالت السَّيدة: تعال يا ماركو ڤالدو. لقد أعلموني أن شخصاً ما يصطاد على سطح بيتنا حمام البلدية. ألا تعرف أنت شيئاً عن الأمر؟

أحس ماركو ڤالدو بنفسه وكأنه يتجمد.

وفي تلك اللحظة صرخ صوت امرأةٍ: سيدتي! يا سيدتي!

ـ ماذا هناك يا غوندالينا؟

دخلت الغسالة وقالت: لقد صعدت إلى السطح لأنشر الغسيل. ولكن الغسيل التصق كله بالأسلاك وعندما حاولت أن أجذبه تمزق بيدي! لقد تلف الغسيل. ألا تعرفين السبب؟

مرَّر ماركو ڤالدو يده على معدته متوجساً وكأنه لا يفلح بهضم شيء ما.



دخان وريح وفقاعات صابون

من مجموعة ماركو فالدو

● يودع ساعي البريد بضع مغلفات كل يوم في صناديق بريد المستأجرين. إلّا أن صندوق ماركو فالدو فقد ظل خالياً، فلا أحد كان يكتب إليه إطلاقاً. ولم يكن صندوقه ذا جدوى لأي شيء بالضبط إن لم يستخدم من حين لآخر لإشعارات دفع فواتير الكهرباء والغاز.

صرخ ميكيلينو: أبي، لدينا بريد.

أجابه: دعك من هذا! إنها أوراق الدعاية المعتادة.

● كانت تبرز من علب الرسائل ورقة مطوية زرقاء وصفراء اللون. تعلن أن مسحوق «البلانكسول» هو من أفضل المنتجات من أجل الحصول على رغوة صابون جيدة. وأن من يتقدم بالورقة الزرقاء الصفراء يحصل منه على عينة مجانية صغيرة.

● وبما أن هذه الأوراق كانت ضيقة وطويلة فإن بعضاً منها ينثني خارج فتحات العلب، وبعضها الآخر ملقى على الأرض مكوراً. أو مدعوكاً قليلاً فقط، لأن كثيراً من المستأجرين اعتادوا عند فتحهم العلبة أن يلقوا على الفور بكل الأوراق الدعائية التي تغص بها. وهكذا بدأ فيليبتو وبيتروتشو وميكيلينو بتجميع مجموعات من قسائم البلانكسول، جامعين بعضها من على الأرض، ومتناولين قليلاً منها من فتحات العلب وزيادة على ذلك مصطادين بعضها بشريط من الحديد.

ـ لديّ أنا الأكثر منها!

ـ لا، عدَّها! لنراهن على أنه لدي أنا منها أكثر!

● كانت الحملة الدعائية للبلانكسول وقد اكتسحت الحي بأكمله الباب تلو الآخر. وقد كرس الأولاد أنفسهم لمسح الحي باباً تلو الآخر مستولين على القسائم.

بعض البوابات كن يطردنهم صارخات:

- يا أولاد! ماذا أتيتم تسرقون؟ سأخبر الحراس! وأخريات كن مسرورات لأنهم يقومون بتنظيف المكان قليلاً من كل تلك الأوراق التي تتكدس هناك كل يوم.

عند المساء، كانت غرفتا ماركو ڤالدو الفقيرتان قد تلونتا بالأزرق والأصفر بفعل أوراق البلانكسول التي راح الأولاد يعدونها ويعيدون عدها ويكدسونها على شكل رزم كما يفعل أمناء الصناديق في المصارف بأوراق النقد.

سأله فيليبتو: أبي، إذا ما حصلنا على الكثير منها، هل سيكون بإمكاننا فتح محل للغسيل؟

في تلك الأيام كان عالم إنتاج المنظفات في حالة فوران عظيمة، إذ أن الحملة الدعائية للبلانكسول أثارت الذعر لدى الشركات المنافسة، ومن أجل طرح منتجاتها فإنها وزعت على كل العلب البريدية في المدينة هذه القسائم التي تعطي الحق بالحصول على عينات مجانية أكبر حجماً دائماً.

وهكذا كان على أولاد ماركو ڤالدو أن يعملوا كثيراً في الأيام التالية، إذ أن صناديق الرسائل راحت تزهر كل صباح، مثل أشجار الدراق في الربيع، بأوراق ذات رسوم خضراء وزهرية وسماوية وبرتقالية، تعد من يستخدم «سبومادور أو لاڤالوكس أو سابونالبا أو ليمبيالين» بغسيل ناصع البياض. وبالنسبة للأولاد فقد توسعت مجموعات القصاصات وقسائم الهدايا دائماً بتصنيفات جديدة. كما توسعت في الوقت نفسه غزواتهم ممتدة إلى أبواب شوارع أخرى.

وبالطبع لم يكن بالامكان أن تمر تلك المناورات دون أن تثير الانتباه إليها، فلم يتأخر أولاد الجوار بفهم الأمر الذي يدفع ميكيلينو وإخوته للصيد طيلة النهار. وعلى الفور أصبحت تلك الأوراق التي لم يكن يعيرها أحد حتى ذلك الحين الاهتمام أبداً، غنيمة مشتهاةً، ومرت فترة من التنافس بين جماعات

الأولاد المختلفة أصبح فيها جمع الأوراق في منطقة بدلاً من منطقة أخرى سبباً للنزاعات والمناوشات بينهم. ثم، وعلى أثر سلسلة من المبادلات والمفاوضات، اتفقوا وذلك عبر تنسيق منظم للصيد كان أكثر جدوى من التخريب الفوضوي. وأصبح جمع الأوراق أكثر منهجية. فما أن يمر لتوه صبي «الكاندوفيور أو ريشاكويك» ليدور على الأبواب حتى يصبح مسيره مراقباً ومتابعاً خطوة تلو أخرى، ويستولي الأولاد فوراً على المواد التي وزعت لتوها.

ومن المفهوم أن فيليبتو وبيتروتشو وميكيلينو كانوا يقودون العمليات دائماً لأن الفكرة الأولى كانت فكرتهم، لدرجة أنهم أفلحوا بإقناع الصبية الآخرين بأن القسائم هي إرث مشترك ويجب حفظها كلها معاً.

وأوضح بيتروتشو: مثلما يفعل البنك!

فسأل ميكيلينو: هل نحن نملك محل غسيل أم بنكاً؟

ـ أياً كان فنحن من أصحاب الملايين!

لم يعد الأولاد ينامون بفعل الإثارة وهم يعدون مشاريع للمستقبل.

ـ يكفي أن نستبدل كل هذه القسائم وسنجمع معاً كمية كبيرة من المنظفات.

ـ أين سنضعها؟

ـ علينا أن نستأجر مخزناً!

ـ ولماذا لا نستأجر باخرة؟

● وبما أن للدعاية مواسم مثلها مثل الزهور والفواكه، فقد انتهى موسم المنظفات بعد بضعة أسابيع. وتواجدت في الصناديق اعلانات عن مستحضرات مفتت المسامير اللحمية. فاقترح أحدهم:

ـ هل نشرع بجمع هذه أيضاً؟

لكنهم رجحوا فكرة تكريس أنفسهم لتحويل الثروات المكدسة إلى مساحيق تنظيف. وكان المقصود الذهاب إلى المحلات المحددة للحصول على عينة بدلاً

من القسيمة. إلّا أن هذه المرحلة الجديدة في مخططهم، التي كانت تبدو سهلة ظاهرياً، بدت أكثر طولاً وتعقيداً من الأولى.

وهكذا جرت العمليات بنظام متفرق حيث يذهب صبي في كل مرة إلى المتجر وبـإمكانـه أن يقدم أيضـاً ثلاث أو أربـع قسائم معـاً على أن تكـون لأنـواع مختلفة، وإذا ما أراد الباعة إعطاءه عينة واحدة من نوع واحـد ولا شيء آخر فإن عليه أن يقول:

– إن أمي تريد أن تجربها كلها لترى أيها الأفضل.

● لكن الأمور تعقدت عندما ـ مثلما يحدث في العديد من المتـاجر ـ وجـدوا أنهم يعطون العينة المجانية فقط لمن يقوم بشراء حاجيـاته. ولم تكن الأمهـات قد رأين أطفالهن متلهفين كثيراً للذهاب والقيام بالمهمة في المتاجر.

وبالنتيجة فإن عملية تحويل القسائم إلى بضائع كانت تستغرق وقتاً طويلاً وتتطلب مصروفات إضافية لأن المشتريات بنقود الأمهات قليلة، والمتـاجر التي يجب التنقيب فيها كثيرة. ولم يكن هناك من واسطة أخرى لتأمـين الأموال إلا في البدء بالمرحلة الثالثة من المخطط، أي بيع المنظفات التي سبق جمعها.

فقرروا القيام ببيعها للبيوت، قارعين أجراسها:

– سيدتي! هل يهمك؟ غسيل ناصع البياض! ـ

ويقدمون علبة من «ريشاكويك» أو مظروفاً من «البلانكسول»

– أجل، أجل. أعطني منها شكراً.

كانت إحداهن، تأخذ العينة وتغلق الباب بوجههم وتقول:

– كيف؟ والدفع؟ ويمطرون الباب بضربات من قبضاتهم.

– الدفع؟ أليس بالمجان؟ هيا إذهبوا يا أولاد!

وفي الواقع كـان يمر عـلى البيوت، بيتـاً تلو الآخـر، في تلك الأيـام بالضبط المكلفون من مختلف الأصناف ليقـدموا عينـات مجانيـة. إذ كانت تلـك حملة دعائية جديدة شرع بها كامـل فرع المنظفـات بعدمـا رأى أن حملة القســائم المجانية قليلة الإثمار.

● بدا منزل مـاركو ڤـالدو أشبـه بمخزن متجـر، مليء كمـا كان بمنتجـات

«الكانديفيور، واليمبيالين ولافالوكس». لكن من كل هذه الكمية من البضاعة لم يكن بإمكانه الحصول حتى ولا على قرش واحد. فهي بضاعة تُهدى مثل ماء الينابيع.

● وبالطبع لم تتأخر بعض الإشاعات بالانتشار بين مكلفي الشركات عن بعض الأولاد الذين يقومون بمثل جولاتهم على الأبواب باباً تلو الآخر بائعين نفس المنتجات التي يرجون هم من الناس قبولها مجاناً. وباعتبار أن موجات التشاؤم أمر معتاد في عالم التجارة. فقد بدأت الأحاديث عن أن الناس الذين كانوا يجيبونهم بأنهم لا يعرفون ماذا سيفعلون بتلك التي يقدمونها لهم كهدايا، كانوا على العكس من ذلك يشترونها من أولئك الذين يجعلونهم يدفعون ثمنها. فما كان إلا أن اجتمعت مكاتب الدراسات في مختلف الشركات واستشير أخصائيون «بأبحاث السوق» وكانت النتيجة التي توصلوا إليها هي أن منافسة غير مشروعة بهذا الشكل يمكن أن يقوم بها فقط مخبئو البضائع المسروقة. وبدأت الشرطة على أثر شكوى نظامية ضد مجهولين، تجوب الأحياء بحثاً عن اللصوص ومخبأ المسروقات.

● من لحظة لأخرى أصبحت المنظفات خطيرة مثل الديناميت، فخاف ماركو ڤالدو وقال: لا أريد بعد الآن حتى ولا غراماً واحداً من هذه المساحيق في بيتي!. لكن لم يعرف أحد أين يضعها فلا أحد يريدها في البيت فتقرر أن يذهب الأولاد ويرموا بها في النهر.

● قبل الفجر، وصلت إلى الجسر عربة يجرها بيتروتشو ويدفعها أخواه محملة بعلب «سابونالبا، ولافالوكس» ثم عربة أخرى يجرها أوغوتشونه ابن البوابة المقابلة وآخرون، وآخرون أيضاً. وتوقفوا وسط الجسر. وأفسحوا المجال لمرور راكب دراجة كان يلتفت إلى الخلف مستطلعاً بفضول، ثم بدأ ميكيلينو رمي العلب في النهر قائلاً: ـ هيا لنبدأ! فصرخ به فيليبتو: أيها الأحمق! ألا ترى أنها تطفو؟ يجب أن تفرغ المسحوق في النهر لا أن تلقي بالعلبة!

● ومن العلب المفتوحة الواحدة تلو الأخرى هبطت سحابة بيضاء خفيفة لتستقر على تيار الماء الذي كان يُرى وهو يمتصها لتعود فتظهر متكاثرة بفقاعات دقيقة ولتبدو من بعدها وكأنها تغرق في القاع.

ـ هكذا، جيد!

وتـابع الأولاد إفـراغ عشرات آلاف الغرامـات، وعشرات آلاف الغـرامـات منها.

صرخ ميكيلينو: انتبهوا، انظروا هناك في الأسفل! وأشار إلى الوادي.

بعد الجسر كان شلال الماء السريع، حيث تيار الماء يندفع للأسفـل. لم تعد الفقاعات الصغيرة ترى، وتعود للظهور إلى الأسفل بقليل. لكنها الآن كانت قد أصبحت فقاعات كبـيرة تنتفخ متـدافعة الـواحدة تلـو الأخرى من الأسفـل، وارتفعت موجة من فقاعات الصابون وتضخمت وأصبحت عالية بمستوى علو الشلال مشكلة رغوة بيضاء مثل جفنة صابون حلاق حركها بفرشاة الحلاقـة. وبـدا أن كل تلـك المساحيق من الأصنـاف المتنافسـة كانت تؤكـد ما ادعتـه لنفسها وتبرهن على فورانها. وهكذا فاضت ضفتا النهر بالفقاعات فما كان من الصيادين، الذين كانوا هناك منذ أول خيوط الفجر بأحذيتهم الطـويلة، إلاّ أن سحبوا خيوطهم وهربوا.

مع نسمات الصباح هبت الريح فانفصـل عنقود من الفقـاعات عن سطـح الماء وطار، طار بعيداً بخفةٍ. كان الفجر فتلونت الفقاعات بلـون الزهـر فصرخ الأولاد الذين رأوها تمضي عالياً فوق رؤوسهم: أووه...

● طارت الفقاعات متابعة سكك مجرى الهواء اللامرئية فوق المدينة، والجة الشوارع على مستوى ارتفاع الأسطحة هاربةً على الدوام من ملامسة الزوايا والميـازيب. حينها انفـرطت فقاعـات العنقود المتـراصة وطـارت الواحـدة تلو الأخرى على هواها آخذة كل منهن طريقاً مختلفة الارتفاع والسرعـة والاتجاه وهامت وسط الهواء. ويمكن القول أنها تضـاعفت، بل أن هـذا كان صحيحـاً لأن النهر تابع فيضانه بالرغوة مثـل ابريق حليب عـلى النار. والـريح، الـريح كانت ترفع عالياً فقاعات لعاب ورايات وسحباً تتطاول بشرائط بلون قوس قزح (كانت حينها أشعة الشمس المائلة، الساقطة على الأسطحة، قد سيطـرت على المدينة والنهر) وتغزو السماء فوق الأسلاك والهوائيات.

ظلال قاتمة لعمال يهرعون إلى المصانع عـلى دراجاتهم النـارية المطقطقـة، ومجموعات الفقاعات الخضراء والزرقاء المتحررة من فوقهم تتبعهم. وكأنما كل

واحد بينهم يجر خلفه عنقوداً من البالونات الصغيرة المربوطة إلى قبضة الدراجة بخيط طويل.

وكان أن انتبه الناس إلى ذلك من الترام: فلتنظروا!، ايه انظروا ماذا هناك في الأعلى؟. فتوقف السائق وهبط كما هبط جميع الركاب من الترام وشرعوا ينظرون إلى السماء. كما توقفت الدراجات الهوائية، وذات المحرك والسيارات وبائعو الصحف والخبازون وجميع المارة عند الصباح ومن بينهم ماركو ڤالدو الذي كان في طريقه إلى عمله. وقف الجميع وأنوفهم مرفوعة الى الأعلى ينظرون متابعين طيران فقاعات الصابون.

وسألت سيدة عجوز: هل هذا شيء ذري؟

فانتشر الخوف بين الناس وراح كل من يرى منهم فقاعة تنزل فوقه يهرب صارخاً: إنها مشعة!

لكن الفقاعات تابعت طيرانها، بألوان قوس قزح، هشة وخفيفة لدرجة أن نفخة واحدة تكفيها لكي تنفجز!

ولم يعد لها من وجود.. وسرعان ما انطفأ الذعر بين الناس هكذا مثلما اتقد.

- ولكن أي اشعاع! إنه صابون! فقاعات صابون مثل تلك التي يلعب بها الأطفال!. وتملكهم فرح عارم:

- انظر إلى تلك! وتلك... وتلك!

لأنهم كانوا يرون منها فقاعات ضخمة ذات أبعاد لامعقولة. كانت تذوب مع تماسها وتصبح اثنتين وثلاثة، وتبدو السماء والأسطحة وناطحات السحاب عبر هذه القباب الشفافة بأشكال وألوان لم تُرَ فيها أبداً من قبل.

ومن مداخنها كانت المصانع قد بدأت تنفث دخاناً أسودَ مثل كل صباح. والتقت مجموعات الفقاعات بسحب الدخان حيث كانت السماء مقسمة بين تيارات الدخان الأسود وتيارات الرغوة القزحية تبدو وكأنها تجاهد في بعض زوابع الهواء وللحظة، للحظة واحدة فقط. بدت قمة المداخن وكأنها غُزيت بالفقاعات لكن سرعان ما حصل اختلاط ما - بين الدخان الذي كان يحصر

قوس قزح الرغوة وفقاعات الصـــابون التي تحصر وشـــاحاً من حبيبـات سواد الدخان - لدرجة لم يعـد يمكن فهم أي شيء. وإلى حد أن مـاركو ڤـالدو بحث وبحث في السماء فلم يعد يفلح برؤية الفقاعات وإنما فقط الدخان والدخان ولا شيء غير الدخان.

حيث النهر أكثر زرقة

من مجموعة ماركو فالدو

كان زمناً تخفي فيه أكثر الأطعمة بساطة تهديدات ومكائد وأنواعاً من الغش، ولم يكن ليمضي يوم دون أن تتحدث فيه بعض الصحف عن اكتشافات مخيفة في مشتريات السوق، فالجبن قد صنع من مواد بلاستيكية، والزبدة من الشمع الدهني، وفي الفواكه والخضار كان زرنيخ مبيدات الحشرات مركزاً بنسب مئوية أكثر مما فيها من الفيتامينات، ولتسمين الدجاج فإنهم يحشونه ببعض الحبوب التركيبية التي تستطيع تحويل من يأكل منه فخذاً الى دجاجة، أما السمك الطازج فقد اصطيد السنة الماضية في ايسلندا أو كانوا يموهون عيونه ليبدو وكأنه اصطيد البارحة، ومن بعض زجاجات الحليب خرج فأر لا يعرف فيما إذا كان حياً أم ميتاً، ومن زجاجات الزيت لم يكن يسيل زيت الزيتون الذهبي، بل دهن البغال العجوزة المقطر لحسن الحظ.

كان ماركو فالدو يستمع في العمل أو في المقهى إلى مثل هذه الأمور، وفي كل مرة كان يشعر بمثل حافر بغل في معدته، أو جريان فأر في بلعومه. وعندما كانت زوجته دوميتيلا تعود من تسوقها الى المنزل، فإن رؤية السلة التي كانت تمنحه ذات مرة الكثير من المتعة لما فيها من الكرفس والباذنجان وعلب البهارات، ولحم الخنزير، بورقها الخشن ذي المسامات، اصبحت توحي اليه الآن بالخوف كما يحدث عند دخول اشخاص معادين الى داخل جدران المنزل.

فوعد نفسه: «يجب أن تتوجه كل جهودي لتزويد العائلة بالأغذية التي لم تمر بين أيدي المضاربين الماكرة». في ذهابه الى عمله عند الصباح كان يلتقي بعض المرات رجالاً يحملون خيطاً بصنارة وينتعلون أحذية مطاطية طويلة، متوجهين الى رصيف النهر.

«وتلك هي الوسيلة» قالها ماركو فالدو لنفسه. إلا أن النهر، هناك في المدينة، حيث تجمع القذارات والتصريفات والمجارير، كان يوحي اليه باشمئزاز عميق، فيقول لنفسه: علي أن أجد مكاناً حيث يكون الماء ماءً حقاً، وحيث تكون الأسماك أسماكاً بالفعل، وهناك سألقي بصنارتي.

كانت الأيام قد بدأت تطول، وبعد عمله كان ماركو فالدو يندفع على دراجته ذات المحرك لاكتشاف النهر في مجراه حتى اعلى المدينة، وكذلك روافده من السواقي، وكانت تثير اهتمامه على الأخص المقاطع التي يجري فيها أبعد ما يكون عن الطريق المعبدة، كان يسلك الطرق الضيقة بين أدغال الصفصاف على دراجته الى ابعد ما يستطيع.

وبعد أن يتركها في دغل ما، يتابع على قدميه حتى يصل الى مجرى الماء، وعندما تاه ذات مرة، أخذ يدور بين الضفاف ذات الأحراش والمنحدرات، ولم يعد يجد أي طريق، ولم يعد يعرف في أية جهة يتبع النهر، وفجأة بينما كان يحرك بعض الأغصان، رأى الماء الهادىء على مرمى أذرع قليلة منه الى الأسفل، كانت منطقة عريضة من النهر أشبه ما تكون بحوض صغير هادىء أزرق اللون، يبدو وكأنه بحيرة جبلية صغيرة.

لم يمنعه الانفعال من التقصي نحو الأسفل بين تموجات التيار الرقيقة، وها هو اصراره قد كوفىء! حركة، اهتزاز فريد لزعنفة على خط سطح الماء، وبعدها واحدة أخرى، وأخرى أيضاً، يا للسعادة التي لا تصدقها عيناه، فذاك مكان تجمع السمك في كل النهر، جنة الصياد التي ربما ما زالت مجهولة للجميع ما عداه، عائداً (وقد حل الغسق) توقف ليرسم علامات على لحاء الأشجار، وليكوم أحجاراً في بعض النقاط، كي يستطيع أن يجد دربه ثانية.

حينها لم يتبق له إلا أن يعد عدته، كان قد فكر بذلك مسبقاً في حقيقة الأمر، فبين جيران منزله وعمال الشركة، اكتشف عشرة من عشاق الصيد كان يعد كلاً منهم بكلمات مختصرة وبايحاءات باعلامه عن مكان مليء بسمك الكمة، يعرفه وحده، فقط، وذلك ما أن يتأكد له ذلك جيداً، فنجح في استعارة القليل من هذا والقليل من ذاك، ترسانة الصياد الأكثر كمالاً، والتي لم يمر مثلها اطلاقاً.

عند هذه النقطة لم يكن لينقصه أي شيء، قصبة،صنارة،شص، طعم،

شبكة، حذاء مطاطي طويل، سلة. وذات صباح جميل، وخلال ساعتين من الوقت (من السادسة الى الثامنة) وقبل ذهابه الى عمله، النهر وأسماك الكمة.. هل كان يستطيع ألا يأخذ منها؟ في الواقع كان يكفيه أن يرمي بصنارته ويأخذ منها، فأسماك الكمة تعض الطعم دون أن يساورها الشك. وعندما رأى أن ذلك كان سهلاً على هذا النحو بواسطة الصنارة، فقد جرب الشبكة، كانت أسماكاً جاهزة تقفز الى الشبكة ورأسها الى الأمام.

وعندما حلت ساعة الانصراف من هناك، كانت سلته قد امتلأت فبحث عن طريق وهو يصعد من النهر.

● ايه، أنت!

من كوع النهر بين أشجار الحور كان هناك شخص واقف يلبس قبعة الحراس وينظر اليه بخبث.

– أنا؟ ماذا هناك..؟

قالها ماركو فالدو متنبهاً لتهديد مجهول ضد أسماكه.

● اين اصطدت تلك الأسماك؟

– ايه؟ لماذا؟

وقد قفز قلب ماركو فالدو الى حلقه.

● اذا ما اصطدتها هناك من الاسفل فلترمها على الفور. ألم تر المصنع هناك في الجبل؟

في الواقع أشار الى مبنى طويل كان يبدو حينها بعد انعطاف النهر الى ما وراء أشجار الصفصاف، وهو ينفث دخاناً في الهواء، ويصب في الماء كتلة كثيفة ذات لون لا يصدق، بين اللون الفيروزي واللون البنفسجي.

● على الأقل بأي لون رأيت الماء! إنه مصنع للدهانات والنهر مسمم بفعل ذلك اللون الأزرق، وكذلك الأسماك أيضاً. فلترمها على الفور، وإلا فسأصادرها منك!

أراد ماركو فالدو ساعتها أن يرميها بعيداً وبأسرع ما يمكن، وأن ينزل

حملها عن ظهره، وكأنما كـانت رائحتها فقط ستكفي لتسميمـه، ولكنه لم يكن ليرغب في الظهور أمام الحارس على تلك الصورة المخجلة.

● واذا ما كنت قد اصطدتها هناك الى الأعلى بأكثر؟

ـ اذا فهـذا شيء مختلف تمامـاً، إذ أنني سأصـادرها منـك، وسأغـرمـك بغرامة. فإلى ما فوق المصنع، هناك مركز لإكثار السمك، ألا ترى اللافتة؟

ـ أنا، حقاً.

وأسرع ماركو فـالدو يقـول: إنني أحمل خيط الصنـارة هكذا فقط لأجعـل الأصدقاء يعتقدون أني صياد أمـا الأسماك فقـد ابتعتها من بـائع سمـك في البلدة القريبة من هنا.

● إذاً لا تقـل شيئاً، يبقى عليـك فقط أن تدفـع الرسم لتنقلهـا الى المدينـة فنحن هنا خارج حزامها.

كان ماركـو فالـدو قد فتـح سلته وقلبهـا باتجـاه النهر، لا بـد وأن احدى سمكات الكمة كانت لا تزال حية. لأنها خرجت وهي تختلج وكلها فرح.

الثدي العاري

من مجموعة بالومار

كان السَّيد بالومار يسير على امتداد شاطىء منعزل، يلتقي بندرة من المستحمين. كانت هناك امرأة شابة مستلقية على المنبسط الرملي تأخذ حماماً شمسياً عارية الثدي. أدار بالومار، الرجل الرزين، نظره نحو الأفق البحري. فهو يعلم أن النساء في ظروف مشابهة، وعند اقتراب غريب ما منهن، عادة ما يهرعن إلى تغطية أنفسهن، وهذا ما يبدو له غير جميل ذلك لأنه مزعج للمستحمة التي تأخذ حمام الشمس هادئة، ولأن الرجل الذي يمر يشعر بنفسه أنه معكرٌ للصفو، ولأن تحريم العري يُؤكِّدُ هكذا ضمنياً، ذلك لأن الأعراف المحترمة من طرف واحد تشيع انعدام الأمان وتشويشاً في السلوك بدلاً من الحرية والصراحة.

لهذا فإنه ما أن يرى غيمة برونزية وردية لجذع أنثوي عار ترتسم جانبياً من بعيد حتى يسرع ليرفع رأسه بشكل يبقى معه مسار نظرته معلقاً في الفراغ، ويضمن باحترامه الحضاري الحدود اللامرئية التي تحيط بالأشخاص.

وفكر متابعاً إلى الأمام، وما أن أصبح الأفق فارغاً، مستعيداً الحركة الحرة لمقلتيه: لكنني بتصرفي هكذا أظهر رفضاً للرؤية، أي أنني أيضاً أنتهي بتقوية العرف الذي يعتبر رؤية الثدي أمراً محرماً، أو أنني أخلق نوعاً من حمالات الثدي الذهنية معلقاً ما بين عينيَّ وذلك الصدر الذي بدا لي غضاً ومسراً للنظر بفعل الإنبهار الذي وصلني منه على تخوم حقلي البصري. وبالخلاصة إن عدم نظري إليه يفترض أنني أفكر بذلك العري، وأني منشغل به وهذا في الحقيقة أيضاً سلوك غير رزين ومتخلف.

عائداً من نزهته، مرَّ بالومار ثانية أمام تلك المستحمــة وضبط في هذه المـرة نظـرته ثـابتة إلى أمـامه بشكـل تبلغ فيـه وبتماثـلٍ مُنصف، زبـد الأمـواج المتراجعة، وهياكل الزوارق المسحوبة نحو اليابسة، ووشاح الزبـد الممتد عـلى المنبسط الرملي، والقمر الممتلىء ذا البشرة الأكثر بياضاً بهالة حلمته السمراء، وجانب الشاطىء في الضباب، الرمادي قبالة السماء.

فكر راضياً عن نفسه متابعاً المسير: ها أنذا قد نجحت بجعل الثدي وكأنه امُتصَّ بأكمله من قبل المشهد الطبيعي، وكذلك أيضاً بألّا تثقـل نظرتي أكثـر مما تثقله نظرة نورس أو سمكة غُبَّر.

وفكر متأملاً أيضاً: لكن هل سيكون من الصواب أن أتصرف هكذا؟ أوليس إذلالاً للكائن الإنساني وضعه على مستوى الأشياء واعتباره موضوعاً، وما هو أسوأ من ذلك أن نعتبر موضوعاً ما هو محدد من الجنس الأنثوي في الكـائن؟ ربما لست مخلداً العادة القديمة القائلة بالتفوق الذكري التي أصبحت قاسية مع السنين بغطرسة اعتيادية؟

استدار ورجع أدراجـه. وحينها ألقى نظـرته عـلى الشاطىء بمـوضوعيـة متجردة، راح يتصرف بطريقة يُلاحظ فيهـا انقطاعـاً واستبعاداً أشبـه بومض البرق ما أن يـدخل صـدر المرأة حقـل رؤيته. فتتقـدم النظرة إلى أن تـلامس الجلد المشدود، ثم تحيد عنه، وكـأنما تميـزُ بارتعـاش خفيفٍ القوام المختلف للـرؤية والقيمـة الخاصـة التي تكتسبها، وللحظـة تبقى معلقـة وسط الهـواء واصفة التكور الذي يرافق بروز الثدي عن بعد ما، لا هروباً ولكن أيضاً وقايةً كي تعاود بعدئذٍ مجراها وكأن شيئاً لم يحدث.

وفكر بالومار: هكذا، أعتقد أن موقفي يبدو واضحـاً جداً، بـدون تفسيرات سوء فهم محتملة. لكن تحليق النظـرة هذا ألا يمكن أن يُفهم في نهـاية الأمـر على أنه موقف متعالٍ وسوء تقدير لما هو ثدي ولما يعنيه، والاحتفاظ به بطريقة ما على طرف مهمل، وعـلى الهامش أو بـين قوسـين؟ وها أنـذا ما أزال عـائداً أيضاً لأبعد الثـدي إلى الظليل حيث احتفظـوا به لقـرون من التحفظ الجنسي البشري، ومن الإشتهاء كخطيئة.

إن تفسيراً مثل ذلك التفسير يتعارض مع أفضل نوايا بالومار الذي ينتمي الى جيل ناضج، يرتبط لديه عري الصدر الأنثوي مع فكرة حياة الحب الحميم

الخاص. ومع ذلك حيًّا بمحاباة هذا التغيير في العادات سواء بما يعنيه كانعكاس لعقلية أكثر انفتاحاً في المجتمع، أو بقدر ما يفلح ذلك المشهد على الأخص بجعله يُسرُّ له. إن هذا التشجيع النزيه هو ما كان يريد أن ينجح بالتعبير عنه من خلال نظرته.

استدار نصف دورة. وتحرك أيضاً بخطى واثقة نحو المرأة المستلقية تحت الشمس. توقفت نظرته وهي ترى المنظر العام متلألئاً بشهوة، توقفت عند الثدي باعتبار خاص، لكنها سرعان ما هرعت لتشركه في وثوب رفق واعتراف بالجميل للكل، للشمس والسماء، ولأشجار الصنوبر المنحنية والكثيب، والرملة، وصخور الشاطىء والطحالب وللكون الذي يدور حول هالتي الجلد المتوجتين.

لا بد وأن هذا كان كافياً ليطمئن المستحمة المنفردة بشكل نهائي وليزيل من حقلها الأوهام الضالة. لكنه ما كاد يعود للاقتراب منها حتى تراها نهضت فجأة وغطت جسدها متأففة وابتعدت هازة كتفيها بعصبية وكأنها هاربة من إلحاح هجاء مضايق.

وختم بالومار قائلاً بمرارة: إن عادة السلوك الخاطىء غير المفيدة تمنعنا من أن نثمن النوايا الأكثر إلهاماً بقيمتها الصحيحة.

قراءة موجة

من مجموعة بالومار

كان البحر متموجاً وأمواج صغيرة تتكسر على الشاطىء الرملي، والسيد بالومار واقفاً على الشاطىء ينظر الى موجةٍ. ولم يكن مستغرقاً في تأمله للموج... لم يكن مستغرقاً لأنه يعلم جيداً ما يفعله، فهو يريد النظر الى موجة وينظر اليها. لم يكن يتأمل لأن التأمل يحتاج لمزاج ملائم وحالة نفسية مناسبة، ومصادفة خارجية موافقة أيضاً. وعلى الرغم من أنه لم يكن للسيد بالومار أي شيء ضد التأمل من حيث المبدأ إلا أنه لم يتحقق لديه أي من تلك الشروط الثلاثة. وفي نهاية الأمر ليست «الأمواج» الشيء الذي ينوي النظر اليه ولكن يريد موجة مفردة فحسب. ولهذا فهو يحدد سلفاً موضوعاً محدداً ودقيقاً لكل تصرف من تصرفاته رغبة منه بتجنب الأحاسيس المبهمة.

رأى السيد بالومار موجة تظهر من بعيد، تكبر وتقترب وتغير شكلها ولونها وتتكور على نفسها وتغرق وتتلاشى وتتدفق من جديد. كان بإمكانه عند هذه النقطة أن يقنع نفسه أنه قد وصل بعمليته الى نهايتها المفترضة وأن ينصرف. ولكن عزل موجة واحدة، بفصلها عن الموجة التي تتبعها في الحال وتبدو وكأنها تدفعها وعندما تصل اليها وتقلبها، لهو أمر شديد الصعوبة، كما هو أمر فصلها عن الموجة التي تسبقها والتي تبدو كأنها تجرها خلفها نحو الشاطىء إلا إذا ما انقلبت عليها وكأنما تريد ايقافها. واذا ما اعتبرت بعد ذلك، كل موجة بمعنى الاتساع موازية للشاطىء فإن من الصعب تقدير الى أي حد تمتد الجبهة التي تتقدم باستمرار، وأين تنفصل وتتجزأ الى أمواج مستقلة بذاتها مميزة بسرعتها، وشكلها، وقوتها، ووجهتها.

وأخيراً لا يمكننا مراقبة موجة دون أن نأخذ بالحسبان المظاهر المعقدة التي تتسابق لتشكيلها وكذلك تلك المظاهر المعقدة التي تخلقها الموجة بدورها.

إن هذه المظاهر تختلف باستمرار ولهذا فـإن موجـة ما هي دائمـاً مختلفة عن موجة أخرى. ولكن من الحقيقة أيضـاً أن كل مـوجة هي مسـاوية لـموجة أخـرى حتى ولو لم تكن تـلاصقها أو تلحقهـا على الفـور. وأخيراً فـإن هناك بعض الأشكال والحالات التي تتكرر مع أنها موزعـة بشكل غـير منتظم سواء في حيّز المكان والزمان. ولأن ما ينوي السيد بالومار فعله في هذه اللحظة وبكل بساطة هو أن يرى موجة، أي أن يجمِّع كل مكوناتها المترامنة دون اهمال أي منهـا، فسوف تتـركز نظـرته عـلى حركـة الماء التي تـرتطم بـالشـاطىء حتى يستطيع تسجيل مظاهر لم يكن قد أدركها من قبل، وحالما سيدرك أن الصـور تتكرر فإنه سيعلم أنه رأى كل ما أراد رؤيته وسيستطيع التوقف عندها.

يميل السيد بالومار، الرجل العصبي الذي يعيش في عالم مجنون ومزدحم، الى تخفيف علاقاته الخاصة مع العـالم الخارجي، وليحمي نفسـه من الانهاك العصبي العام فإنه يحاول بقدر استطاعته ابقاء أحاسيسه تحت المراقبة.

انتصبت ذروة المـوجة المتقـدمة في نقطـة أكثر من انتصـابها في مـواضـع أخرى، ومن هناك بدأت تزيـد وتنثني بياضـاً حتى إذا ما وصلت الى مسـافة معينة من الشاطىء وجد الزبد الوقت الكافي للانطواء على نفسه والاختفاء من جديد وكأنه ابتُلع، وفي اللحظة ذاتها يعود ليغـزو كل شيء. ولكن في هـذه المرة يندفع من الأسفل كسجادة بيضاء تعود لتطفو على الشاطىء لاستقبال الموجة اللاّحقة. ولكنه عندما انتظر أن تتدحرج الموجة على السجادة أدرك أنه لم يعد هناك موجة وإنما السجادة فقط، وكذلك هذه أيضاً سرعان مـا تختفي وتصبح رملة مبللة متلألئة تنسحب مسرعة وكأنما يدفعها تقدم الرمل الجـاف الكثيف الذي يدفع للأمام تخمه المتموج. وفي نفس الوقت يجب اعتبـار جبهة اللسـان البحـري ـ حيث تنقسم الموجـة الى جناحـين يذهب أحـدهمـا من اليمـين الى اليسار والآخر بالعكس باتجاه الشاطىء ـ نقطة الانطلاق والوصول لتباعدهما وتلاقيهما هذه النقطة المقعرة التي تتبع تقدم الجناحين ولكنها تبقى محجـوزة وراءهما وعرضة لتراكبهما المتعاقب حتى تستـدرك بموجـة أخرى أكثـر منها قوة وتتعرض بدورها أيضاً لمشكلة التباعد والتـلاقي وبعدهمـا بموجـة أخرى أكثر قوة أيضاً تحل العقدة مكسرة إياها.

آخذاً شكل رسم الموج، يدخل الشاطىء في المياه رؤوساً غير واضحة تطول بطبقات مبعثرة من الرمل تشكلها التيارات وتبعثرها مع كل مد وجزر.

اختار السيد بالومار احدى هذه الألسنة الرملية الواطئة كنقطة مراقبة لأن الأمواج ترتطم عليها بميل من جهة وأخرى قافزة على سطحها نصف المغمور وتلتقي مع تلك الأمواج القادمة من الجهة الأخرى.

وهكذا يجب إذاً، أن نأخذ بالحسبان هذه الدفعات المتضاربة الاتجاهات التي تتوازن الى حد ما وتتجمع الى حد ما وينتج تكسّر عام لكل الدفعات، والدفعات المضادة في تمدد الزبد المعتاد، من أجل فهم مم تتشكل موجة ما.

حاول السيد بالومار الآن تحديد حقل مراقبته. فإذا ما مثلت أمامه لوحة ولنقل بطول عشرة أمتار من الشاطىء وعرض عشرة أمتار من البحر فإنه يستطيع القيام بإحصاء كل حركات الأمواج المتكررة ضمنها بترددات مختلفة خلال فاصل ما من الزمن. وتكمن الصعوبة في تحديد تخوم هذه اللوحة لأنه فيما لو أنه اعتبر مثلاً الخط الناجم عن موجة تتقدم نحو الطرف الأكثر بعداً عنه فإن هذا الخط باقترابه نحوه وانتصابه أمامه يخفي عن عينيه كل ما يجري خلفه. وهكذا فإن الفضاء المتفحص ينقلب ويتحطم في الوقت نفسه.

ومهما يكن من أمر فإن السيد بالومار لا ييأس ويعتقد في كل لحظة أنه نجح برؤية كل ما استطاع رؤيته من نقطة مراقبته. ولكن بعد ذلك كان يظهر له دائماً شيء ما لم يكن قد أخذه بحسبانه.

ولولا تلهفه للوصول الى نتيجة كاملة ونهائية لعمليته المرئية لكان النظر للأمواج بالنسبة له رياضة مريحة جداً ولأمكنه ذلك أيضاً انقاذه من الانهاك العصبي وأزمات القلب والقرحة. ولربما كان مفتاحاً للسيطرة على تعقيد العالم وتخفيفه حتى الآليَّة الأكثر بساطة.

لكن أية محاولة لتعريف هذا النموذج يجب أن تأخذ بحسبانها موجة طويلة تظهر بغتة باتجاه عمودي على تكسر الأمواج ومواز للشاطىء وتدفع أمامها ذروة مستمرة بارزة بصعوبة.

وكانت قفزات الأمواج التي تتشابك مسرعة نحو الشاطىء لا تعيق الانطلاق المتشابه لهذه الذروة المتماسكة التي تقطعها بزاوية قائمة ولا يعرف الى أين تذهب، ولا من أين تأتي. وربما كان خيط من الهواء الشرقي هو الذي يحرك سطح البحر بشكل متعارض مع الدفعة العميقة الآتية من كميات مياه عرض البحر.

ولكن هذه الموجة التي تولد من الهواء تجمع أيضاً في طريقها الدفعات المائلة التي تولد من الماء وتحيدها عن مجراها وتضعها في اتجاهها وتحملها معها وهكذا تتابع نموها وتزيد من قوتها الى أن يهدئها التصادم مع الأمواج المعاكسة شيئاً فشيئاً، حتى يجعلها تختفي. أو ربما يديرها لتختلط باحدى سلالات الأمواج المائلة فترتطم بالشاطىء معهن.

كان تركيز الانتباه على مظهر ما يجعل هذا المظهر يقفز أول الأمر ويغزو اللوحة كما في بعض الرسوم التي يكفي أن نغمض العينين وعند إعادة فتحهما نرى أن المنظور العام قد تغير. والآن وفي تصالب ذرى الأمواج هذا، الأمواج الموجهة بشكل مختلف فإن المنظر الشامل يبدو مقسَّماً الى لوحات صغيرة تتوارد على سطح الماء ثم تختفي وإضافة لذلك فإن لكل موجة قوة تراجعها التي تقف عائقاً، أمام الأمواج التي تباغتها. وإذا ما ركزنا انتباهنا على هذه الدفعات الآتية من الخلف يبدو وكأن الحركة الحقيقية، هي تلك التي ترحل من الشاطىء وتذهب نحو عرض البحر.

ترى هل كانت النتيجة الحقيقية التي يسعى السيد بالومار للوصول اليها هي جعل الأمواج تسير باتجاه معاكس، وأن يقلب الزمن، ويميِّز ماهية العالم الحقيقية فيما وراء الاعتيادات الحسية والعقلية؟

لا. لقد وصل به الأمر الى أنه بات يشعر بنوع خفيف من الدوار لا أكثر. وقد انتصر الاصرار الذي يدفع الأمواج نحو الشاطىء التي تضخمت في الواقع كثيراً. ترى هل بدأت الريح تتغير؟. أية مصيبة ستحل لو أن هذه الصورة التي أفلح السيد بالومار بوضعها مجتمعة بدقة تتخرب، وتتكسر، وتتبعثر. وأنه إذا ما نجح فقط باستذكار كل المظاهر مجتمعة فإنه سيستطيع البدء بالمرحلة الثانية من العملية وينشر هذه المعرفة في الكون أجمع.

كان يكفيه ألا يفقد صبره، الشيء الذي لا يحصل متأخراً، ابتعد السيد بالومار على امتداد الشاطىء بأعصاب متوترة مثلما أتى وهو غير متأكد أيضاً من كل شيء أكثر من ذي قبل.

سيف الشمس

من مجموعة بالومار

يتشكل الإنعكاس على البحر عندما تميل الشمس للغروب. فتندفع من الأفق البحري نحو الشاطىء بقعة براقة مؤلفة من كثير من التلألؤات التي تتماوج ما بين بريق وومض. وتعتم زرقة البحر شبكتها وتبدو المراكب البيضاء في النور المعاكس سوداء تفقد معه تماسكها وامتدادها وكأنما استهلكتها تلك البقع المتألقة.

إنها الساعة التي يقوم خلالها السيد بالومار الرجل المتأني باستحمامه المسائي. وما أن يلج الماء وينفصل عن الشاطىء حتى يصبح انعكاس الشمس حساماً لامعاً على الماء ممتداً اليه من الأفق. ويسبح السيد بالومار في السيف. وربما من الأفضل القول أن السيف يبقى أمامه دائماً وعند امتداد باعه ينسحب ولا يدعه يدركه أبداً. وحيثما يمد ساعده نحوه يأخذ البحر لونه المسائي المعتم الذي يمتد من الشاطىء حتى كتفيه.

وبينما كانت الشمس تميل نحو المغيب كان الانعكاس الأبيض المتوهج يتلون بلون الذهب والنحاس. وحيثما تنقل السيد بالومار كان هو نفسه رأس ذلك المثلث المدبب المذهب والسيف يتبعه مشيراً إليه كعقرب ساعة قطبها الشمس.

حاول السيد بالومار التفكير، وربما من الأفضل القول حاولت الأنا الأنانية الفردية المتكبرة: إنها هدية خاصة تصنعها الشمس من أجلي شخصياً. ولكن الأنا الإكتئابية أو المازوخية التي تتعايش مع الأنا الأخرى في ذات الوعاء عارضتها: إن جميع أولئك الذين لهم عيون يرون الإنعكاس الذي يتبعهم وإن وهم الأحاسيس والعقل يجعلنا جميعاً سجناءه دائماً.

وتدخلت ساكنة أخرى، وهي أنـاً ثالثة تشاطـرهما المكـان وأكثر منهمـا إنصافاً. قائلة: إنني جزء من الأشخاص ذوي الإحسـاس والتفكير القـادرين على إقامة علاقة مع الأشعة الشمسية وتفسير وتقييم الأحاسيس والأوهام.

وفي تلك الساعة كان كل مستحم يسبح نحو الغرب يرى خط الضوء الـذي يتجه نحوه لينطفىء أبعد بقليل من النقطة التي يندفع إليها ساعده. كان لكل واحد انعكاس النور الخاص به والذي له اتجاهه ذاك من أجله وحـده ويتنقل معه.

كـانت زرقة المـاء تبدو معتمـة أكثر من جـانبي الانعكاس فتسـاءل السيد بالومار: هل الظلمة هي المسلَّمة اللاوهمية الـوحيدة المشتـركة لـدى الجميع؟ ولكن مع ذلك كـان السيف يفرض نفسـه أيضاً عـلى عين كـل واحد ولم يكن هناك من مفر للهروب منه.

وتابع تساؤله: هل الشيء الذي نشترك به جميعاً هو فقط ذلـك المعطى لكل واحد منا وكأنه محصور به وحده؟

كانت الألواح الشراعية تنزلق على سطح الماء قاطعة بميلان جـوانبها هـواء البر الذي هبَّ تلك السـاعـة. وكانت الأشكـال المنتصبة تمسـك عمود الشراع بأذرع مشدودة كرماة السهام كابحـة الهواء الـذي يصفق بالشراع. وعنـدما كانوا يعبرون النور المنعكس تراهم وسط لون الذهب الذي يلف ألـوان الشراع التي تخف حينها. ويبدو المنظر الجانبي للأجسام المعتمة وكأنه دخل الليل.

فكر السابح بالومار: كل هذا لا يحـدث على البحـر ولا في الشمس وإنما في رأسي مـا بين دارات عيني ودمـاغي. إني أستحم في عقلي وهنـاك فقط يوجـد سيف الضوء هذا. وإن هذا ما يشدني تماماً. هذا هو معدني الـذي أستطيع التعرف إليه بطريقة ما.

وفكر أيضـاً: لا أستطيع الوصول اليه فهو هناك أمامي دائماً، ولا يمكن أن يكون بأن واحد داخلي وشيئـاً ما أسبـح ضمنه، وإذا مـا رأيته فـإنني أبقى خارجه ويبقى هو في الخارج. تعب ساعداه وخـارت قواهمـا ويمكن القول أن كل تفكيره بدلاً من أن يزيد متعته بالاستحمام في الانعكاس فهو يزعجه وكأنما يشعره بنفسه محاصراً وقد اقترف خطأً، أو محكوماً.

وهذه أيضاً مسؤولية لا يستطيع التهرب منها. فـالسيف موجـود فقط لأنه كان هناك وإذا ما انصرف وعاد كل المستحمين والسـابحين إلى الشـاطىء، أو لو أنهم أداروا ظهورهم للشمس فقط. أين كان سينتهي السيف؟

كان ذلك الجسر البحـري الممتد مـا بين عينيـه والشمس الآفلة هـو الشيء الوحيد الأكثر هشاشة الذي أراد إنقاذه من هذا العالم الذي يتحلـل. لم تعد للسيد بالومار رغبة بالسباحة فقد شعر بالبرد ولكنه ما زال يتابع وقـد أصبح الآن مجبراً على البقاء في الماء طالما أن الشمس لم تختف.

وفكر عندئذٍ: إذا ما كنت أرى، وأفكر وأسبح بالانعكاس فذلك لأن الشمس ترسل أشعتها من أقصى الجانب الآخر وإن ما يهم فحسب هـو الأصل الـذي منه هناك شيء ما لا تستطيع نظرتي تحمله إذا لم يكن شكله ملطفاً مثلمـا هو في هذا الغروب. وما تبقى ما هو إلا انعكاس بين انعكاسات بما فيها أنا.

مرَّ شبح شراع وجرى ظل الرجل كالشجرة بين نشارة براقةٍ وفكـر: «بدون الريح لا يمكن لهذا الفخ المصنـوع من مفاصـل بلاستيكيـة، وعظم، وأربطة، وحبل شراع من نايلون أن يبقى في الأعلى. وإن الهـواء هو الـذي يجعل منـه زورقـاً يبدو ذا غـايات ومـآرب. ووحـده الهـواء يعـرف إلى أين يمضي اللـوح الشراعي والملاّح».

يا للعزاء. ماذا لو أنه نجح بإلغاء أنـاه الجزئيـة والشكوك من خـلال مبدأ مؤكد ينحدر منه كل شيء! مبـدأ واحد ومطلق تـأخذ منـه الأفعال والأشكـال أصلاً لها؟. أو ربما مجموعة من المبادىء المتميزة كخطوط القـوة التي تتلاقى ببعضها البعض معطية للعالم الذي يبدو وحيداً ثانية بعد ثانية؟.

فكر السيد بالومار متصنعاً الموت: «... من المفهوم أن الهواء وكذلك البحر، وكميات الماء الجارية هي التي تحمل الأجسام العائمة والطافية الصلبـة مثلي أنا واللوح».

وفي تلك الساعة تأملت نظرته المعكوسة الغيوم الهائمة والهضاب المكسـوة بالغابات، كذلك فإن أنـاه إنعكست بتلك العنـاصر: النار السمـاوية، والهـواء الجاري، والماء المهـد والأرض الداعمـة. أهذه هي الطبيعـة؟ ولكن ليس هناك من وجـود لشيء مما يـراه في الطبيعة. فـالشمس لا تغرب، وليس للبحـر ذلك اللون والأشكال هي تلك التي يعرضها الضوء عـلى شبكية العـين. وبحركـات

غير طبيعية من أطرافه راح يطفو بين الأطياف، وخيالات إنسانية بأوضاع غير طبيعية تتحرك بأوزانها مستغلة لا الهواء وإنما المجردات الهندسية لزاوية ما بين الهواء وانحراف آلية مصطنعة وهكذا تنزلق على جلد البحر الناعم. أليست الطبيعة موجودة؟.

غرقت أنا السيد بالومار السابحة في عالم منفصم، وفي تقاطع حقول القوى، وفي مساقط إتجاهيه، وفي الحزم الضوئية المستقيمة التي تتقارب وتتباعد وتتكسر. ولكن تبقى داخله نقطة واحدة يوجد فيها كل شيء في عالم آخر كعقدة وخثرة واحتقان. إنه الاحساس بأنك موجود ولكن باستطاعتك ألّا تكون في عالم يستطيع ألا يكون ولكنه موجود.

عكّرت موجة دخيلة مياه البحر الراكدة بفعل زورق ذي محرك فاجأ وجرى بعيداً مخلفاً وراءه زيتاً وقافزاً ببطنه المسطّح. وانطوى شراع الإنعكاسات المتحدة والمتغيرة بفعل النفط منساباً داخل الماء. ولا يمكن أن توضع تلك الكثافة المادية التي افتقدت تحت لمعان الشمس موضع الشك بسبب هذا الحضور الجسدي للانسان الذي نشر خلف مسيرها المحروقات المتسربة وبقايا الوقود المحترق وفضلات مختلفة مازجة ومضاعفة الحياة والموت حول نفسها.

فكر بالومار: هذا هو موطني الذي لا أقبل أن يوضع موضع قبول أو استبعاد لأنني لا أستطيع أن أكون إلا وسطه هنا فقط...» ولكن ماذا لو كان مصير الحياة على الأرض قد حدد مسبقاً؟. وإذا أصبح الجري نحو الموت أكثر قوة من أي إمكانية للاسترجاع؟.

انسابت موجة كبيرة ووحيدة حتى اصطدمت بالشاطىء حيث كان يبدو هناك شاطىء من رمل، وحصى، وطحالب، وقواقع صغيرة جداً من الصدف. وها هو رحيل الماء يبدي الآن بعضاً من الشاطىء المزدان بالعلب، والنوى، وبموانع الحمل البلاستيكية، والأسماك الميتة، وزجاجات البلاستيك والأحذية المهترئة، وحقن الأبر، والأغصان السوداء من الشحم.

بعدما سخط السيد بالومار من موجة الزورق الآلي ووجد نفسه مغموراً بموجة النفايات شعر بنفسه فضلة بين الفضلات، جثة تتدحرج على شواطىء القمامة في القارات المقابر.

وإذا لم تعد هناك من عين سوى عـين الموتى الـزجاجيـة تتفتح عـلى وجوه الكرة الأرضية فإن السيف لن يعود ليلمع ثانية أبداً.

ولو فكرنا بذلك بتمعن فإننا سنجد أن حالة مثل هذه ليست بجديدة فمنـذ ملايين من القرون خلت كانت أشعة الشمس تسطع على الماء قبل أن تتواجـد العيون القادرة على إدراكها ورؤيتها.

سبح السيد بالومار تحت الماء وخرج وها هو السيف!

ذات يوم خرجت من الماء عين ولقـد استطاع السيف الـذي كان ينتظـرها هناك أن يبرز كامل حدة رأسه الدقيق وروعته المتألقة. وكأنهما خلقـا الواحـد لـلآخر السيف والعـين. ولربمـا لم تكن ولادة العين قـد ولّدت السيف وإنمـا العكس لأن السيف لم يكن باستطاعته أن يفعل أقل من العين التي تنظر إليه في عليائه.

وفكر السيد بالومار بالعالم من دونه، بذلك العالم الواسع قبل ولادته. وذلك الأكثر ظلاماً ما بعد موتـه. وحاول تخيـل العالم قبـل وجود العيـون، أي عين كانت، فكان عـالماً سيبقى في الغـد بسبب المصائب والتـآكلات البطيئـة عالمـاً أعمى.

ترى ما الذي يحصل (أو حصـل أو سيحصل) في ذلـك العالم؟ في مـوعده رمى شعـاع من الضـوء بسهمـه من الشمس لينعكس عـلى البحـر الهـادىء ويتـلألأ مع ارتجـاج الماء وهـا هي المادة تصبـح ماصـة للضوء وتختلف عن بعضها بأنسجـة حيويـة. وتزهـر فجأة أو تتفتـح ثانيـة عين أو مجمـوعة من العيون.

العالم ينظر إلى العالم

من مجموعة بالومار

على إثر سلسلة من المغامرات الفكرية التي لا تستحق الذكر، قرر السيد بالومار أن النظر للأشياء من الخارج سيكون نشاطه الرئيسي. ولكونه قصير البصر، شارد الذهن وانطوائياً فإنه يبدو وكأنه ينتمي بمزاجه إلى ذلك النموذج البشري الذي يعرف عادة بالمراقب. ومع ذلك فقد حدث دائماً أن بدت له بعض الأشياء، كجدار من الحجارة، قوقعة المحار، ورقة شجر وإبريق الشاي وقدمت نفسها له وكأنها تطلب منه انتباهاً دقيقاً ومطولاً. وينهمك بمراقبتها تقريباً دون أن يأخذها بحسبانه وتبدأ نظرته بتتبع كافة التفاصيل ولا يفلح بعدها بالانفصال عنها. وقرر السيد بالومار من الآن فصاعداً متابعة انتباهه. أولاً بألاّ يترك هذه الدعوات التي تصله من الأشياء تفوته وثانياً بأن يعطي لعملية المراقبة الأهمية التي تستحقها.

عند هذه النقطة حدثت فجأة أول لحظة من الأزمات. حاول السيد بالومار وهو متأكد من أن العالم سيكشف له من الآن فصاعداً عن غنى لا محدود من الأشياء التي ينظر إليها، وتوقف ثم تابع مرحلة ثانية كان مقتنعاً فيها بأن الأشياء التي يجب النظر إليها هي بعض الأشياء وليست الأخرى التي عليه أن يبحث عنها. ومن أجل هذا فقد توجب عليه أن يواجه في كل مرة مشاكل في الاختيار، الاستبعاد، تسلسل الأفضليات. وسرعان ما تنبه إلى أنه يتذوق كل شيء مثلما كان يضع في الوسط «أناه» وكل المشاكل التي تحكم علاقته بأناه. ولكن كيف له أن ينظر لشيء ما تاركاً أناه على الطرف؟ ولمن هاتان العينان اللتان تنظران؟ يُعتقد عادة أن تكون الأنا أحداً ما يطل بوجهه من عينيه كما يطل من حافة النافذة وينظر للعالم الممتد بكامل سعته أمامه. فإذاً هناك نافذة تطل على العالم، ومن الطرف الآخر هناك العالم، ومن هنا من العالم دائماً...

ما الشيء الآخر الذي تريدون أن يكون؟ بقليل من جهد التركيز أفلـح بالـومار بتغيير مكان العالم من هناك في الأمـام ووضعه مطـلاً على حـافة النـافذة. إذاً ماذا بقي خارج النافذة؟ العالم أيضاً ما زال هناك، وقد انقسم إلى عالم ينظر وعالم يُنظر اليه، وهو المعروف أيضاً «الأنـا» أي بالسيـد بالـومار، أليس هـو أيضاً جزءاً من العالم الذي ينظر إلى جزء آخر من العالم؟ أو ربمـا، وبالنظـر لأن هناك عالماً من هنا وعالماً من هناك خارج النـافذة فـإنه لا بـد وأن «الأنا» ليست شيئاً آخر سوى النافذة التي ينظر العالم للعالم من خلالها. ولكي ينظر إلى نفسه فإن العالم بحاجة لعيني السيد بالومار ونظارتيه.

إذاً سينظر السيد بالومار من الآن فصاعداً إلى الأشياء من الخارج وليس من الداخل، لكن هذا غير كاف، سينظر إليهـا نظرة نـابعة من الخـارج لا من داخله ويحاول القيام بالتجربة على الفور. الآن ليس هو من ينظر ولكن العـالم من الخارج هو الذي ينظر للخـارج. ما أن ثبَّتَ ذلـك حتى جال ببصره حـوله بانتظار تغير الهيئة العامة، لكن لا... إنه اللون الـرمادي المعتـاد يوميـاً الذي يحيط به. ويجب عليه إعادة دراسة كل شيء من البداية.

لا يكفي أن يكون ما هو في الخارج من ينظر إلى الخارج إذ أنـه من الشيء المنظور إليه حيث يجب أن ينطلق المســار البصري الذي يـربطه بـالشيء الذي ينظر.

فمن مدى الأشياء الصـامت يجب أن تنطلق إشارة مـا، نداء، غمـزة عين، شيء ينفصل عن الأشياء الأخرى بنية أن يعني شيئاً ما... ما هو؟... نفســه، شيء مسرور بأنه منظور من الأشياء الأخـرى فقط عندمـا يكون مقتنعـاً بأنـه يعني نفسه ولا شيء آخر وسط الأشياء التي تعني نفسها ولا شيء آخر.

إن مناسبات من هذا النوع لا تتكـرر بالتـأكيد ولكنهـا مع ذلـك لا بد وأن تظهر عاجلاً أم أجلاً. إذ يكفي أن ننتظـر أن تتحقق إحدى تلـك المصادفـات السعيدة التي يود من خلالها العالم أن ينظر هـو أو أن يُنظر إليـه في اللحظة ذاتها. ويتواجد السيد بالومار ليمر من هناك وسطها، أو ربما لن يتوجب عـلى السيد بالومار ولا حتى الانتظار لأن هذه الأشياء تحدث فقط عنـدما ننتظـرها بشكل أقل.

الخف غير المتجانس

من مجموعة بالومار

خلال رحلة قام بها إلى إحدى بلدان الشرق. اشترى السيد بالومار خفاً من أحد الأسواق. وعندما عاد إلى بيته جرب أن ينتعله فتبين له أن فردة من الخف أكبر من الفردة الأخرى، ولهذا فهي تسقط من قدمه، تذكر البائع العجوز الجالس على عقبيه في عش من أعشاش البازار أمام كومة أخفاف مختلفة القياسات غير مرتبة. رآه بينما كان ينقب في الكومة ليجد له خفاً مناسباً لقدمه وجعله يقيسه ثم شرع ينقب من جديد وأعطاه الفردة المفترضة التي قبلها بدوره دون أن يجربها.

فكر السَّيد بالومار: «ربما هناك الآن رجل آخر يسير في ذلك البلد منتعلاً خفاً فردتاه غير متجانستين» ورأى ظلاً رقيقاً يجوب الصحراء عارجاً بفردة حذاءٍ تخرج من قدمه مع كل خطوة يخطوها، أو بفردة ضيقة جداً تسجن له قدمه الملتوية.

«ربما كان هو أيضاً يفكر بي في هذه اللحظة، ويتمنى أن يلقاني لنتبادل الخف. إن العلاقة التي تربطنا محسوسة وواضحة أكثر من قسم عظيم من العلاقات التي تقوم بين الكائنات الإنسانية، ومع ذلك فإننا لن نلتقي أبداً».

قرر الاستمرار بانتعال هذا الخف غير المتجانس تضامناً مع رفيقه المجهول السيء الحظ، ليبقى على هذه التكامليَّة النادرة هكذا حية، وعلى انعكاس صدى الخطى العرجاء من قارة إلى أخرى.

تأخر بتمثيل هذه الصورة. لكنه يعلم أنها لا تتطابق مع الحقيقة. إذ أن جرفاً من الأخفاف المخاطة على مجموعات يصل دورياً ليزود كومة البائع العجوز في ذلك البازار. وفي أسفل تلك الكومة سيبقى دائماً زوج غير متجانس،

لكن طالما أن مخزون البائع العجوز لن ينفذ (وربما لن ينفذ إطلاقـاً، واذا مات فـإن الحانـوت بكل بضـاعته سيؤول إلى ورثتـه وإلى ورثة الـورثة)، وسيكفي البحث في الكومة حتى نجد دائماً خفاً يجب أن يصبح متجانساً مع خف آخر. ويمكن أن يتحقق خطأ ما مع مشترٍ ساهٍ مثله هو، لكن ربما تمر قرون قبل أن تنعكس نتائج هذا الخطأ على أحد مُرتادي ذلك البازار العتيق. إن أي عمليـة تفكك في نظام العـالم لا تنعكس لكن الآثار ستبقى خفيـة وستتأخـر بالظهـور بفعل غبار الأعداد الضخمة الذي تحويه عملياً إمكانيات لامحدودة لتناظـرات وتوافقات ومنجزات قرنٍ جديد.

لكن ماذا إن لم يُسفر خطأه إلّا عن إلغاء خطأ سابق؟ وإذا ما كان شروده رسولاً لا للفوضى وإنما للنظام؟ «ربما أن البائع كان يعلم جيداً بما فعله ـ فكر السيد بالومار ـ وقد أوجد، بإعطائه لي ذلك الخف غير المتجانس، علاجاً لتنافر كـان يختبىء منذ قـرون في تلك الكـومة من الأخفـاف المنتعلة من أجيـال إلىً أجيال في ذلك البازار.

ربمـا كان الـرفيق المجهول يعـرج في زمان آخـر، وأن تناظـر خطـواتهمـا يتجاوب ليس فقط من قارة إلى أخرى وإنما أيضاً على بعـدِ قرون من الـزمن. وليس من أجل هذا يشعر السيد بالومار بنفسه أقل تضامناً معه. فهـو يستمر بجر قدميه بعناء شديد ليمنح العزاء لخياله.

أخيرا يأتي الغراب

كان التيار شبكة من التموجات الخفيفة الشفافة في وسطها الماء الذي يجري. ومن حين لآخر كان تلألؤ ظهر سمكةترويت ما أشبه بضربات أجنحة فضية على وجه الماء، وسرعان ما كانت تغطس ثانية على الفور بشكل متعرج.

قال أحد الرجال: إنه مليء بأسماك الترويت.

– إذا ما ألقينا قنبلة بداخله فإن جميع الأسماك ستطفو جماعات ببطونها إلى الأعلى، قال الآخر ورفع قنبلة من حزامه وبدأ بفك البرغي من عقبها.

عندئذٍ تقدم الصبي الذي كان ينظر إليهم، إنه صبي جبلي ذو وجه كالتفاحة،

– أعطني إياها. قال وأخذ البندقية من أحد أولئك الرجال.

– ماذا يريد هذا؟ قال الرجل وهو يريد أن يسحب البندقية منه. لكن الصبي كان يصوب السلاح على الماء وكأنه يبحث عن هدف.

«إذا ما أطلقت النار في الماء فإنك ستخيف الأسماك ولا شيء آخر» كان يريد قولها لكنه لم يتمكن مع ذلك من إنهائها. فقد لامست سمكة ترويت سطح الماء بحركة اختلاج. أطلق الصبي عليها طلقة وكأنه كان يتربص بها هناك بالضبط، طفت السمكة على الفور ببطنها الأبيض فقال الرجل: خرقها.

لقم الصبي السلاح ثانية وأداره حوله. كان الجو نقياً ولطيفاً ومن خلاله كانت تبدو إبر الصنوبر على الأشجار في الضفة الأخرى، وشبكة ماء التيار. قذفت إحدى التموجات بسمكة ترويت أخرى إلى السطح فأطلق النار عليها، فطفت على الفور ميتةً.

كان الرجال ينظرون قليلاً إلى سمكة الترويت وقليلاً إليه. فقالوا:

- إنه يطلق النار جيداً.

كان الصبي ما يزال يحرك فوهة البندقية في الهواء. كم هو غريب أن نكون محاطين بالهواء هكذا، مفصولين عن الأشياء الأخرى بأمتار من الهواء، فكر بذلك، لكنه كان يصوب البندقية في الهواء في خط مستقيم غير مرئي مشدود من فوهة البندقية إلى الهدف، إلى فرخ الباز الذي يتحرك في السماء بجناحيه اللذين كانا يبدوان ثابتين. ومع الضغط على الزناد بقي الهواء شفافاً خالياً مثل ذي قبل لكن فرخ الباز طوى جناحيه ووقع مثل حجر هناك في الأسفل عند رأس الخط الآخر. وانبعثت من صمام الخنق المفتوح رائحة البارود الطيبة.

جعلهم يعطونه طلقات أخرى. وكانوا حينها كثرةً ينظرون إليه وهم خلفه على ضفة النهر الصغير. لماذا لا ترى كيزان الصنوبر فوق قمم الأشجار على الضفة الأخرى، ولماذا لا يمكن لمسها؟ ولماذا ذلك البعد الفارغ بينه وبين الأشياء؟ ولماذا تبدو كيزان الصنوبر، التي كانت معه وأمام عينيه، لماذا تبدو بدلاً من ذلك هناك بعيدة عنه؟. مع ذلك صوب البندقية، من المفهوم أن المسافة الفارغة ما هي إلا خدعة، إذ أنه عندما يلمس الزناد يقع في نفس اللحظة كوز الصنوبر مقطوعاً من عنقه. كان حساً بالفراغ أشبه بلمسه. فذلك الفراغ الممتد من سبطانة البندقية والذي يتابع امتداده عبر الهواء ويمتلىء مع الإطلاق كان ينتهي هناك في الأسفل عند كوز الصنوبر أو السنجاب، والحجر الأبيض، وزهرة الخشخاش.

- إن هذا لا يخطىء منها واحداً.

كان الرجال يقولون ذلك ولم تكن لدى أي منهم الجرأة على الضحك.

قال القائد: هل تأتي معنا،....

فأجاب الصبي: وأنتم هل تعطوني البندقية،...

- حسناً، هذا مفهوم.

ذهب معهم.

رحل بمزودة ملأى بالتفاح وقرصين من الجبن. كانت البلدة تبدو بقعةً من

الزرقة والتبن والـروث البقري في قعـر الوادي. والـرحيل جميـلاً لأنه مـع كل مرحلة منه تُرى أشياء جديدة، أشجار غنيـة بكيزان الصنـوبر والطيـور التي تطير على الأغصان، وحزاز الصغر على الصخر، وكلها أشياء في دائرة الأبعاد الخداعة، الأبعاد التي كان إطلاق النار يملأها مبدداً الهواء ضمنها.

قالوا له: لكن ليس بالمستطاع إطلاق النـار، فهذه أمكنـة يجب المرور فيهـا بصمت، وإن الطلقات تلزم للمعركة. لكن عند لحظة ما عبر أرنب بري مرتعبـاً من وقـع الخطوات، عبـرَ الأرنب الدرب وسط أصـواتهم وتحركـاتهم وكاد أن يختفي بين الأحراش عندما أوقفته طلقة من الصبي. ضربة جيدة ـ قال القائد أيضاً ـ لكن هنا لسنا في الصيد كان يجب عليك ألاّ تطلق النـار حتى لو رأيت طائر تدرج.

لم تمض ساعة واحدة حتى سمعوا، وهم في الرتل، أصوات طلقات أخرى. إنه الصبي من جديـد! وجن القائـد غضباً وذهب ليلحق بـه. فوجـده يضحك بوجهه الأبيض والأحمر كالتفاحة.

قال: طيور الحجل، وأظهرها له، لقد ارتفع منها رفُّ طائراً من السياج.

– حجل أم جدجـد، لقد قلت لـك ذلك أعطني البنـدقية، وإذا مـا أغظتني أيضاً فإنك ستعود إلى البلدة.

أبـدى الصبي قليلاً من الاستيـاء، إذ لم يكن من طعم للسـير أعـزلاً، لكن طالما هو معهم فقد كان بمستطاعه أن يأمل باستعادة البندقية.

عنـد الليـل نـامـوا في بيت ريفي خشبي. استيقظ الصبي مـا أن انجلت السماء قليلاً بينما كان الآخرون ما يزالون نياماً. تناول أفضل بنـدقية لـديهم وملأ المزودة بالطلقات وخرج. كان الجو خجلاً نقياً عند الصباح الباكر، وهناك شجرة توت بعيدة قليلاً عن المنزل. تلك الساعة هي سـاعة وصـول طيور أبـو زريق. وها هو واحد منها أطلق عليه النار وهرع لالتقاطه ثم وضعه في المزودة. ودون أن يتحرك من النقطة التي التقطه فيها بحث عن هـدف آخر. سنجـاب! جفل من صوت الإطلاق وجرى ليختبىء على قمة شجـرة كستناء. مـات وكان فأراً كبيراً بذيله الرصاصي الذي يفقد خصلات من الوبر عند مـلامسته. ومن تحت شجرة الكستناء في سهل أكثر انخفاضاً، رأى فطـراً سامـاً أحمر اللـون بنقاط بيضاء ففتته بطلقة بندقية وذهب ليرى إذا ما كـان قد نـال منه تمـاماً.

كان الذهاب هكذا من هدف لآخر لعبة جميلة ربما استطاع معها أن يجول العالم. رأى حلزوناً ضخماً على حجر فسدد على فخذه، وعندما وصل إلى المكان لم يرَ إلّا الحجر المثلم وقليلاً من الروال بلون قوس قزح. وهكذا كان قد ابتعد بنفسه عن البيت الريفي الخشبي نحو سهول مجهولة.

من الحجر رأى شقاً على الجدار، ومن الجدار بركة وضفدعة ومن البركة لافتةً على الطريق، هدف سهل. من اللافتة تُرى الطريق وهي تمضي متعرجة... وإلى الأسفل منها هناك رجال بملابس عسكرية يتقدمون بأسلحتهم المسددة. وعند ظهور الصبي، ومعه البندقية، وهو يبتسم بوجهه الأبيض والأحمر كالتفاحة صرخوا وصوبوا اسلحتهم نحوه. لكن الصبي كان قد شاهد الأزرار المذهبة على صدر أحد أولئك وأطلق النار مسدداً على زر منها.

سمع صرخة الرجل وأصوات إطلاق النار، رشاً أو دراكاً، التي كانت تصفر فوق رأسه فانبطح أرضاً خلف كومٍ من الأحجار على طرف الطريق في زاوية ميتة حيث باستطاعته التحرك أيضاً، لأن الكوم كان طويلاً، وأن يطل برأسه من جهة غير متوقعة، ويرى برق فوهات أسلحة الجنود، ولون بذاتهم الرمادي اللماع ويطلق النار على شارةٍ أو شعار ما عليها، وأن يزحف على الأرض برشاقة إلى جهة أخرى ليطلق النار.

بعد ذلك بقليل سمع طلقات خلف كتفيه لكنها كانت تتجاوزه لتصيب الجنود. إنهم الرفاق الذين أتوا لمؤازرته برشاشاتهم وهم يقولون: لو أن الصبي لم يوقظنا بصوت طلقاته...

أصبح بوسع الصبي، وقد غُطي برمايات رفاقه، أن يسدِّد بشكل أفضل. لكن في لحظة ما لامست طلقة خده، التفت فرأى جندياً كان قد وصل إلى الطريق الأعلى. فرمى بنفسه في مجرى صخري ليكون بمأمن لكنه أطلق النار أثناء ذلك وأصاب ليس الجندي وإنما البندقية بشكل جانبي عند المخزن. ثم سمع كيف أن الجندي لم يكن يفلح بتلقيم البندقية ثانية ويلقي بها على الأرض. خرج الصبي عندئذٍ من كمينه وأطلق النار على الجندي الذي فرَّ راكضاً فأطاح له بكتافيته.

تبعه، وكان الجندي يختفي حيناً في الغابة ويظهر ثانية على مرمىً النار

حيناً آخر. حرق له شبكة الخوذة ثم أصاب حلقة من الحزام. ووصلا أثناءها وهما يتطاردان إلى وادٍ مجهول حيث لم يعد يسمع ضجيج المعركة. عند حد ما لم يعد الجندي يجد أمامه الغابة وإنما فرجة مضاءة منها حولها انحدار من الأحراش الكثيفة. لكن الصبي كان على وشك الخروج من الغابة فتمكن الجندي بالكاد وقتئذ بالاختفاء خلف صخرة كبيرة وسط الفرجة المضاءة وتكور على نفسه واضعاً رأسه بين ركبتيه.

هناك شعر ساعتها بأنه في مأمن فقد كانت لديه قنابل يدوية وليس بإمكان الصبي الاقتراب منه وإنما أن يحرسه فقط ويبقيه على مرمى البندقية كي لا يهرب. فكر لو أنه تمكن من الوصول إلى الأحراش بقفزة منه متزحلقاً نحو المنحدر الكثيف النبات لكان بالتأكيد بمأمن. إنما كانت هناك تلك القطعة الجرداء التي يجب اجتيازها. إلى متى سيبقى الصبي هناك؟ أولن يتوقف أبداً عن الاحتفاظ بسلاحه مصوباً؟ قرر الجندي القيام بتجربة. وضع الخوذة على رأس الحربة وأخرج رأسها خارج الصخرة. طلقة وتدحرجت الخوذة على الأرض مثقوبة.

لم يقنط الجندي إذ أن التصويب إلى هناك حول الصخرة كان سهلاً بالتأكيد. لكن لو أنه تحرك بسرعة لكان من المستحيل إصابته. في تلك اللحظة عبر طيرٌ السماءَ بسرعةٍ، ربما كان فرخ ديك. طلقة واحدة وسقط. مسح الجندي العرق عن رقبته. مرَّ طير آخر، سمَّنة وسقطت تلك الأخرى أيضاً. ابتلع الجندي ريقه. لا بد وأن ذلك المكان هو ممر عبور فقد كانت الطيور تتابع طيرانها، وجميعها مختلفة، وذلك الصبي يستمر بإطلاق النار عليها وإسقاطها. راودت الجندي فكرة: «إذا ما بقي هو منتبهاً للطيور فإنه لن يكون منتبهاً إليَّ. وأني سأرمي بنفسي ما أن يطلق النار». لكن ربما من الأفضل القيام بتجربة قبل ذلك. التقط الخوذة وأمسك بها جاهزة على رأس الحربة. مرَّ طيران اثنان معاً، هذه المرة كانا زوجاً من طائر الشنقب. كان يؤسف الجندي التفريط بفرصة جميلة بهذا الشكل من أجل التجربة لكنه لم يكن يريد المخاطرة أيضاً. أطلق الصبي النار على طائر شنقب، وعندئذٍ أظهر الجندي الخوذة فسمع صوت الطلقة وشاهد الخوذة تطير في الهواء. عندها شعر الجندي بطعم الرصاص في فمه وانتبه بالكاد إلى أن الطير الآخر أيضاً سقط بطلقة جديدة.

مع ذلك لم يكن عليه القيام بحركات متسرعة. فقد كان بمأمن من خلف تلك الصخرة بقنابله اليدوية. فكر لماذا لا يجرب أن يدرك الصبي بقنبلة وهو مختبيء أيضاً؟ تمدد بظهره على الأرض ومدَّ ذراعه خلفه منتبهاً إلى ألاَّ يكشف نفسه، وجمع قواه ورمى بالقنبلة. رمية جميلة ستصل بعيداً، لكن عند منتصف خطها المنحني فجرتها طلقة بندقية في الهواء فاستدار الجندي بوجهه إلى الأرض حتى لا تصل إليه الشظايا.

عندما رفع رأسه كان الغراب قد وصل. هناك طير أسود يحلق بجولات بطيئة في السماء فوقه، غراب على الأغلب. لا بد وأن الصبي سيطلق عليه النار بالتأكيد. لكن الطلقة تأخرت باسماع صوتها. أو ربما أن الغراب كان عالياً جداً؟ مع أنه أصاب طيوراً أكثر علواً وسرعة. في النهاية صوت طلقه. الآن سيسقط الغراب. لا، فقد كان يتابع دورانه البطيء هادىء الأعصاب وبدلاً منه سقط كوز صنوبر من شجرة صنوبر قريبة منه. هل شرع بالرمي على كيزان الصنوبر الآن؟ واحداً تلو الآخر راح يصيب كيزان الصنوبر التي كانت تسقط بضربة خاطفة.

عند كل طلقة كان الجندي ينظر إلى الغراب ويتساءل: هل يسقط؟ لا.. لقد كان الطير الأسود يدور دائماً نحو الأسفل فوقه. أمن الممكن أن الصبي لم يكن يراه؟ ربما لم يكن للغراب من وجود وأنه أحدُ تخيلاته. ربما أن من سيموت يرى مرور كل الطيور وعندما يرى الغراب فإن هذا يعني أن الساعة قد دنت. مع ذلك من اللازم إعلام الصبي الذي كان مستمراً بإطلاق الرصاص على كيزان الصنوبر. في تلك اللحظة نهض الجندي على قدميه وصرخ بلغته وهو يشير إلى الطائر الأسود بإصبعه: هناك يوجد الغراب!. فأصابته الطلقة تماماً وسط عقاب ذي جناحين منبسطين كان قد طرزه على سترته.

وكان الغراب يهبط ببطء بجولات دائرية.

من الذي وضع اللغم في البحر؟

من مجموعة وأخيراً يأتي الغراب

في ڤيلا رجل المال بومبونيو كان المدعون يحتسون القهوة على الشرفة بينما الجنرال آمالا سونتا يشرح الحرب العالمية الثالثة بالفناجين والملاعق الصغيرة مبتسماً للسيدة بومبونيو وهي تقول: مخيف! ـ تلك المرأة كانت ذات طبع هادىء.

وحدها فقط كانت السَّيدة آمالا سونتا تُظهر نفسها ذاهلة وكان بإمكانها أن تسمح لنفسها بذلك بما أن زوجها لشدة شجاعته يريد الحرب الشاملة على أربع جبهات فوراً. وكانت تقول: نتمنى ألَّا تدوم طويلاً.... إلَّا أن الصحفي سترابونيو قال متشككاً: ايه، ايه إن كل شي متوقع، تذكر سعادتكم مقالتي الصحفية في السنة الماضية طبعاً؟..

ـ ايه، ايه وافقه /بومبونيو/ الذي كان يتذكرها لأن سترابونيو قد كتب تلك المقالة بعد حوار أجراه معه.

ـ ومع هذا يجب ألا نستبعد... قال المحترم أوتشليني الذي لم يفلح بإيضاح المهمة السلمية البابوية قبل وخلال وبعد النزاع المحتوم بشكل واضح.

ـ بالطبع، بالطبع أيها المحترم... قالها الآخرون بلهجة إسترضائية فقد كانت زوجة المحترم عشيقة بومبونيو ولم يكن بإمكانهم أن يسببوا له كثيراً من الكدر.

كان البحر يلوح من خلال فواصل الستارة المقلمة وهو يفرك جسمه بالشاطىء مثل هرّ مطمئن وجاهل، يتلوى مع ضربات الهواء. دخل خادم وسأل فيما إذا كانوًا يريدون أصداف البحر قائلاً: لقد حضر عجوز ومعه سلة من قنفذ البحر والمحار الصحني. وانتقل النقاش من خطر الحرب إلى خطر

التيفوس فذكر الجنرال الحوادث الأفريقيةكماذكر سترابونيو بعض الحوادث الأدبية، وكان المحترم يحكم للجميع أنهم على حق وقال بومبونيو الذي كان ذا خبرة بأصداف البحر بأن يحضروا العجوز مع بضاعته وأنه سيختار منها بنفسه.

كان العجوز يدعى «باتشي دلي سكولي» وقد تشاحن مع الخادم لأنه لم يكن يريده أن يلمس السلتين النصف مهترئتين والعفنتين. كان يسند واحدة منهما على جانبه حتى إذا تحرك للدخول تركها تقع على الأرض، أما الأخرى التي كان يحملها على كتفه فلا بد وأنها كانت ثقيلة جداً لأنه وقف ملتوياً بثقلها وقد وضعها على الأرض بكثير من الإنتباه. كانت مغلقة بقطعة من كيس قماش مربوط حولها.

كان رأس باتشي مغطى بقبعة من الزغب الأبيض لا تختلف عن شعره ولحيته. أما بشرته القليلة العارية فكانت حمراء وكأنما الشمس لم تفلح منذ سنوات بجعلها برونزية وإنما فقط بغليها وسلخها. أما عيناه فقد احمرتا بلون الدم حتى وكأنما الوسخ الأبيض الموجود على الأهداب قد تحول إلى ملح. وكان ذا جسم قصير كجسم صبي ذي أطراف كثيرة العقد تخرج من تمزقات ثوبه العتيق الذي ارتداه على جلده حتى درنما قميص. أما الحذاء فلا بد وأنه قد اصطاده من البحر فقد كان مشوهاً جداً وغير متجانس وأشبه ما يكون بالرق ومن كل شخصه كانت تصدر رائحة قوية للطحالب العفنة. فقال السادة:

– يا له من شخص نموذجي!

ما أن كُشفت السلة الخفيفة حتى راح باتشي دلي سكولي يظهر القنافذ المتكومة في صرٍّ أشواكها السوداء اللامعة، وبيديه المتجعدتين المغطتين كلتيهما بالنقاط السوداء بفعل الأشواك المغروزة فيهما كان يجسُّ القنافذ وكأنها أرانب يمسكها من آذانها ويقلبها ويعرض لحمها الأحمر الطري. وتحت القنافذ البحرية كان هناك فاصل من كيس وتحته أيضاً كان المحار الصحني بأجسامه المفلطحة المزنرة باللون الأصفر والأسمر تحت قواقعها ذات اللحية والحزاز الصخري. كان بومبونيو يتفحصها ويشمها: ألا تصب المجارير في مناطقكم أبداً؟ ابتسم باتشي من خلال زغبه: أيه لا، فأنا أقبع على رأس لسان البحر هناك، أما المجاري فهي عندكم هنا حيث تستحمون.

غيَّر المدعون الحديث واشتروا قنافذ ومحاراً وكلفوا باتشي بأن يزودهم بها أيضاً في الأيام القادمة. حتى أن كلاً منهم أعطاه بطاقة الزيارة الخاصة به بشكل يستطيع معه أن يمر على فيلاتهم. وسألوه:

- وماذا معك في السلة الأخرى؟

غمز العجوز بعينه وقال: ايه، حيوان ضخم. حيوان لا أبيعه.

- وماذا ستفعل به إذاً؟ هل ستأكله؟

- آكله! إنه حيوان من الحديد.... يجب أن أجد مالكه لأعيده إليه وليتصرف به هو قليلاً. هل أفصحت القول؟

لم يكن الآخرون قد فهموا فشرح لهم: كما تعلمون، إني أفصل البضاعة التي يحملها البحر إلى الشاطىء عن بعضها البعض فمن جهة الصفيح، ومن جهة أخرى الأحذية، والعظام من جهة أخرى أيضاً. وها قد وصلتني هذه المصيبة فأين أضعها؟ رأيتها في عرض البحر تتقدم إلى الأمام نصفها تحت الماء والنصف الثاني فوقه أخضر بفعل الطحالب وصدئاً. أنا لا أفهم لماذا يضعون هذه المصائب في البحر. أيسركم أن تجدوها تحت أسرَّتكم؟ أو في خزانة ما؟ لقد أخذتها وأبحث الآن عمن وضعها وسأقول له: امسكها قليلاً من فضلك!

وبينما كان يقول ذلك كان قد اقترب بحذر من السَّلة وفك الكيس الذي يغطيها وكشف عن جسم حديدي ضخم مخيف. لم يفهم السادة أول الأمر ولكنهم أتوا بصرخة عندما قال الجنرال آمالا سونتا متعجباً: لغم! فأغمي على السَّيدة بومبونيو. وانتشر بينهم ذعر عظيم فكان بينهم من يجهد نفسه ليهوِّي للسَّيدة ومن كان يطمئن: بالتأكيد هو غير هجومي، لقد بقي لسنين كثيرة يتقاذفه البحر... وكان من يقول: يجب حمله بعيداً من هنا.... ومن اللازم إيقاف ذلك العجوز. إلا أن العجوز كان قد اختفى ومعه السلة الرهيبة.

نادى مالك المنزل خدمه: هل رأيتموه؟ أين ذهب؟ ولم يكن بإمكان أي منهم أن يؤكد أنه خرج، فتشوا عنه في أرجاء المنزل فتحوا الخزائن والدواليب وأفرغوا القبو!

- فليهرب من يستطيع!، صرخ آمالاسونتا بشكل فجائي وقد شحب لونه، هذا البيت في خطر فلتخرجوا جميعاً!

فاعترض بومبونيو: لماذا بيتي بالذات؟ وبيتك، فلتفكر به أيها الجنرال!

– يجب أن أذهب لأحرس بيتي. قال سترابونيو الذي تذكر بعض مقالاته الماضية والحالية.

– بيترو! صرخت السَّيدة بومبونيو وقد غادرت إلى وعيها وارتمت على عنق زوجها.

– بيرينو! صرخت السَّيدة اوتشليني وهي ترمي بنفسها أيضاً على عنق بومبونيو متصادمة مع زوجته الشرعية.

فقال المحترم أوتشليني: لويزا! هيا بنا إلى البيت!

فقالوا له: أتعتقد أن بيتك أكثر أماناً؟ فبسبب السياسة التي ينتهجها حزبك أنت في خطر أكثر منا!.

إنتابت أوتشليني ومضة نبوغ فقال: لنخبر الشرطة! انتشرت الشرطة في المدينة الساحلية بحثاً عن العجوز الذي يحمل اللغم. وحُرست فيلات الممول بومبونيو والجنرال أمالا سونتا والصحفي سترابونيو والمحترم أوتشليني وفيلات أخرى أيضاً من قبل مفارز مسلحة. كما راحت مفارز نزع الألغام من الهندسة تفتشها من القبو إلى السقيفة. وتهيأ ندماء فيلا بومبونيو ليخيِّموا في العراء تلك الليلة.

وفي أثناء ذلك كان مهرب يدعى غريمبانته أفلح دائماً بمعرفة كل شيء بفضل صداقاته، كان قد بدأ البحث عن باتشي دلي سكولي لحسابه الخاص. كان غريمبانته هذا شخصاً قوياً يرتدي قبعة بحار من قماش أبيض، وكانت جميع الأعمال المشبوهة التي تجري في البحر وعلى الشاطىء تمر من بين يديه. كان سهلاً بالنسبة لغريمبانته وقد قام بجولة على بعض مطاعم حي البيوت القديمة أن يلتقي باتشي الذي كان خارجاً ثملاً بعض الشيء وعلى كتفه سلته الغامضة فدعاه للشراب في مطعم «الأذن المقطوعة» وبدأ يعرض عليه فكرته بينما كان يصب له ليشرب قال له:

– من غير المفيد أن تعيد اللغم إلى مالكه طالما أنه سيستطيع أن يعيده فوراً إلى حيث وجدته أنت. وبدلاً من ذلك، إذا ما أصغيت إليَّ، سنحصل بواسطته على كثير من السمك نغزو به كل أسواق الساحل ونصبح من أصحاب الملايين خلال أيام قليلة.

من اللازم معرفة أن صبياً يدعى «زافرينو»، اعتاد أن يقحم نفسه دائماً في كل شيء، كان قد تبع الإثنين إلى مطعم «الأذن المقطوعة» واختبأ تحت الطاولة وفهم على الفور ما كان يعنيه غريمبانته فهرب فوراً وهرع ليشيع الأمر بين فقراء حي البيوت القديمة.

- هيه يا، أتريدون أن تأكلوا السمك المقلي اليوم؟

فأطلت من خلال الشبابيك الضيقة والمنعدمة التوازن نساءٌ ضامرات بشعرهن الأشعث وعلى صدورهن أطفالهن، وشيوخ كل بمسماعه ونساء ثرثارات كن يقشرن الهندباء، وشباب عاطلون عن العمل كانوا يحلقون ذقونهم.

- وكيف، كيف؟.

- اسكتوا، اسكتوا. تعالوا معي. قال لهم زافرينو.

عاد غريمبانته الذي كان قد مرَّ بمنزله ومعه محفظة كمان، ومشى مع العجوز باتشي وسلكا الطريق المحاذية للبحر. وكان فقراء حي البيوت القديمة قد أتوا خلفهما على رؤوس أصابعهم. النساء ما زلن يرتدين صداراتهن وكل منهن بمقلاة على كتفها كالسلاح، والكهول المشلولون في عرباتهم، ومشوهو الحرب على عكازاتهم وجموع من الصبية جميعهم حول تلك الجماعة.

ما أن وصلا إلى صخور لسان البحر حتى أُلقي اللغم في البحر ضمن تيار حمله نحو عرض البحر. وأخرج غريمبانته من محفظة الكمان واحداً من تلك الأسلحة قاتلة البشر التي تطلق النار رشاً وركزها خلف مخبأ من الصخور. وعندما أصبح اللغم على مرمى رمايته بدأ يطلق النار وكانت الطلقات ترسم على سطح الماء قذائف صغيرة. أما الفقراء فقد انبطحوا ببطونهم على الطريق الساحلية وسدُّوا آذانهم.

وعلى حين غرة ارتفع من البحر عمود كبير من الماء عند النقطة حيث كان اللغم أولاً. كان صوت الانفجار عظيماً تناثر معه زجاج الفيلات قطعاً صغيرة. ووصلت الموجة حتى الطريق وما كادت المياه تهدأ حتى بدأت تصل جماعات من بطون الأسماك البيضاء. كان غريمبانته وباتشي يضعان أيديهما على شبكة كبيرة عندما اجتاحهما الحشد الذي كان يجري نحو البحر.

نزل الفقراء إلى المـاء بثيابهم فكـان منهم من يمسك حـذاءه بيده مشمـراً بنطـاله، ومن نـزل بحذائـه وبكل شيء، والنسـاء بتنانـيرهن الطافيـة دوائـراً وجميعهم منحنون لالتقاط الأسماك الميتة. منهم من يصطـادها بيـديه. ومنهم بقبعته، ومنهم بحذائـه ومن يضعها في جيبـه أو في حقيبة يـده. وكان الأولاد الأسرع بينهم دون عـراك فقد كـان الجميع متفقـين عـلى اقتسـام الأسمـاك بحصص متساوية، بل أنهم كانوا منشغلين بمسـاعدة الشيـوخ الذين كـانوا ينزلقون بين حين وآخر تحت الماء ويخـرجون وقـد امتلأت لحـاهم بالطحـالب وصغار السلطعون. أما أكثر المحظوظات فقد كن المترهبات اللواتي كن يتابعن اثنتين اثنتين بمنـاديلهن المشدودة عـلى سطح المـاء ويمشطن البحر كلـه. أما البنات الجميلات فقد كن يصرخن بين الحـين والآخر: أي، أي... لأن سمكـة ميتة دخلت وارتفعت نحوهن تحت التنورة فيغطس الشباب الصغار تحت الماء بحثاً عنها لاصطيادها.

وعلى الشاطىء بدأت توقد نيران الطحالب الجافة وظهرت المقلايات وأخرج كل واحد من جيبه زجاجة صغيرة من الزيت وبدأت تنتشر رائحـة القلي. أمـا غريمبانتـه فقد ولّى هـارباً حتى لا تقبض عليـه الشرطة وبيـده ذلك السـلاح مقوض الأحياء. بينما كان باتشي دلي سكولي عـلى العكس منه وسط الآخـرين مع الأسماك والسلاطعين والجمبـري التي كانت تبـرز من تمزقـات ثوبـه وهو يأكل سمكة السلطان ابراهيم نيئة لفرط سعادته.

أمنية في تشرين الثاني «نوفمبر»

من مجموعة وأخيراً يأتي الغراب

أدرك البرد المدينة ذات صباح من تشرين الثاني «نوفمبر» بشمس كاذبة معلقة في سماء هادئة وخالية بشكل مخادع، وراح ينتشر في الشوارع الطويلة المستقيمة مثل سيوف كثيرة جاعلاً القطط تجري هاربة من تحت المزاريب لتختبىء في المطابخ التي ما زالت مطفأة. كان الناس يستيقظون متأخرين ولا يفتحون نوافذ بيوتهم ثم يخرجون بمعاطفهم الخفيفة مرددين: سيتأخر الشتاء هذه السنة. ويرتعشون وهم يستنشقون الهواء الجليدي ويفكرون بمؤنهم من الفحم والحطب المعدة منذ الصيف ويهنئون أنفسهم على فطنتهم.

وقد كان يوماً سيئاً بالنسبة للفقراء لأنه لم يعد بوسعهم أن يؤجلوا مشاكل التدفئة والكساء التي وضعوها جانباً حتى ذلك الحين. كما كان يُشاهد في الحدائق صبيان طوال القامة هزيلون يرمقون برغبة أشجار الدلب وهم يتجنبون الحراس ويخبئون المناشير المسننة تحت معاطفهم البالية. وتحت ملصق إعلاني عن عمل صالح يعلن عن توزيع كنزات وسراويل داخلية شتوية، كانت هناك مجموعة من الناس وقد تجمهرت لتقرأه.

كان على المستفيدين من مساعدة كنيسة معينة الذهاب لاستلام الملابس من منزل «دون غريللو». وكان «دون غريللو» يسكن بيتاً قديماً ذا سلم ضيق لا بئر فيه، كما أن باب شقته يطل مباشرة على الدرجات الصغيرة بحافة من طرف السطح وقد أشير إليه بالكاد. وعلى هذه الدرجات الصغيرة كان الفقراء يصطفون خلال أيام التوزيع في طابور الواحد منهم تلو الآخر، يطرقون الباب المغلق ويسلمون لخادمة الخوري الصلعاء التي تدعو للرثاء شهادات وقسائم، وينتظرون على السلم حتى تعود الخادمة ومعها تلك الصرّة الهزيلة. أما في

الداخل فقد كانت تتراءى غرفة ذات أثاث منخور وقديم وفيها دون غريللو الضخم ذو الصوت الأجش والضاحك وقد جلس خلف طاولة مزدحمة بالصرر حيث كان يدوّن كل شيء في السجلات.

كان الطابور يتكشف أحياناً ومن خلال زوايا السلَّم عن أرامل خائرات لم يكنَّ ليخرجن أبداً من سقيفاتهن، وشحاذين يسعلون بشكل سيء، ونماذج مغبرة من البشر القادمين من الريف يجرون أقدامهم على الدرجات الصغيرة بأحذيتهم ذات المسامير، وشبان ضامرين بشعرهم الأشعث، ومهاجرين لا أحد يدري من أين جاؤوا بأحذيتهم الشتوية ومعاطفهم الصيفية الواقية. كان هذا الخط البطيء المشوّه يمتد في بعض الأحيان نحو الأسفل إلى ما بعد طابق النصاصي حيث كان يفتح باب زجاجي لمحل فراء «فابريتسيا». وقد كان على السَّيدات الأنيقات اللواتي كن يدخلن إلى «فابريتسيا» ليقسن بأنفسهن ويعدّلن معاطف فراء النمس أو الأستراخان، أن يمررن ملتصقات بالدرابزين كي لا يلامسن المعدمين.

وفي اليوم الذي كانت توزع فيه عند «دون غريللو» القمصان والسراويل الداخلية وقف في الصف رجل عار. كان عتال عجوز طويل وقوي ذو لحية بيضاء مبرقشة ببعض الخصلاتً التي لم تزل شقراء وكان يرتدي معطفاً عسكرياً فوق جسده العاري وقد زرره بالكامل وتدثر به وعظام ساقيه العاريتين تنتهي بزوج من الأحذية انتعلها بدون جوارب. كان الناس ينظرون إلى الأسفل ويمكثون ذاهلين بينما هو يضحك ويسخر منهم بوجهه العريض الخمري المنشرح وبغمازتيه وعينيه الزرقاوين تحت أهداب من الشعر الأبيض على جبهته. كان يدعى «بارباغاللو» وقد سرقوا له ملابسه عند النهر هذا الصيف بينما كان يعمل برفع الحصى، ومنذ ذلك الحين تابع حياته مرتدياً بعض الأسمال، الأمر الذي كان ينتهي به بين الحين والآخر إلى السجن أو إلى مأوى المسنِّين إلَّا أنهم كانوا يخرجونه من السجن بعد وقت قصير، وكان يهرب من المأوى ويتسكع متشرداً متكاسلاً أو كادَّاً لساعات هنا وهناك. وكان عدم وجود ملابس لديه عذراً جيداً له ليطلب الصدقة أو ليضع نفسه في السجن عندما لا يكون لديه مكان أفضل يأوي إليه. إلَّا أن برد ذلك الصباح جعله يقرر أن يطلب لنفسه كسوة، ولهذا فقد أخذ يتجول عارياً بذلك المعطف

فقط. مخيفاً الصبايا معرّضاً نفسه للتوقيف من قبل الحراس عند كل تقاطع طريق بينما كان يتجول بين أماكن توزيع الإعانات الواحد تلو الآخر.

عندما وصل إلى الطابور الواقف على السلم لم يعد أحد يتكلم إلَّا عنه أما هو فقد كان مشغولاً بتشتيت الطابور وتخفيض تعداده ومحاولة المرور إلى الأمام بكل الحيل.

– أجل، أجل أنا عار! هل تروني؟ أو تعتقدون أنني عاري الساقين فقط! أو تريدون أن أفك الأزرار؟ هيّا، إما أن تدعوني أتقدم إلى الأمام وإلَّا فإنني سأفك أزراري! ما هذا البرد! لم أشعر بنفسي حسناً من قبل أبداً! أترغبين بملامستي يا سيدتي لتعرفي ما إذا كنت دافئاً؟ ألا يعطي الخوري سوى السراويل؟ وأنا ماذا سأفعل بها؟ سآخذها وسأبيعها.

إنتهى به الأمر ليجلس ضمن الطابور على درجة هي مصطبة تقع تماماً أمام مخزن الفراء «فابريتسيا» حيث كانت السيدات تذهبن وتأتين مستعرضات معاطف الفراء في أيامها الأولى. وكن يصرخن: حين رؤيتهن الساقين العاريتين للعجوز الجالس: آه...!

– لا تستدع الحراس يا سيدتي، لقد قبضوا عليَّ مسبقاً وأرسلوني إلى هنا لأرى إذا ما كانوا سيكسونني. وفضلاً عن ذلك فإنه لا يُرى مني أي شيء فلا تفتعلي الكثير من المشاكل.

كانت السيدات يمضين مسرعات و «بارباغاللو» يحس بنفسه ملامساً بتلك الأهداب الناعمة المعطرة بالنفتلين والزنبق فيقول:

– وبر جميل يا سيدتي، لا غبار عليه، سيدفىء ما تحته هناك.. كما كان يمد يده إلى كل سيدة كانت تمر بجانبه ويداعب فراء معطفها فتصرخ: النجدة!. أما هو فكان يفرك بها خده مثل القط.

انعقد لدى فابريتسيا ما يشبه الإجتماع إذ لم تعد تجرؤ واحدة من السيدات على الخروج وكن يتساءلن: أيجب استدعاء الحراس؟ ولكن ما العمل إذا ما كانوا هم الذين أرسلوه إلى هنا حتى يكتسي؟؟. وكنَّ بين الحين والآخر يفتحن فرجة من الباب متسائلات: أما زال هناك؟

وذات مرة وضع رأسه في فتحة الباب وهو ما يزال جالساً.

ـ أوه! ولولا القليل لكان قد أغمي عليهن.

في نهاية الأمر قرر بارباغاللو: فلنذهب للتفاوض. ونهض وقرع جرس محل فابريتسيا ففتحت له عاملتان واحدة شاحبة متوسلة، وصبية ذات جدائل سوداء.

ـ استدعيا لي السيدات.

ـ هيا من هنا! قالت الشاحبة. ولكن بارباغاللو لم يدعها تغلق الباب.

ـ إذهبي أنت وناديهن ـ قال للأخرى ـ فاستدارت تلك وذهبت فقال لها بارباغاللو: شاطرة.

وعندما برزت صاحبة المحل مع الزبونات قال لهن العتال:

ـ كم ستدفعون لي إذا لم أفك أزرار معطفي؟

ـ ماذا؟

ـ هيا، بلا مشاكل وبإحدى يديه بدأ بفك أزراره بدءاً من ياقته، والثانية كان قد احتفظ بها مبسوطة فبدأت السيدات يبحثن عن قطع النقود الصغيرة في محافظهن ويعطينها له. وكانت سيدة مسنة مثقلة بالحلي تبدو وكأنها لا تجد قطع النقود لديها وهي تراقبه بعينيها الضخمتين المترهلتين بلونهما الأسمر الدكن فتوقف بارباغاللو عن فك الأزرار وقال: إذاً كم ستدفعون لي إذا ما فككت أزراري؟

ـ آه، آه، آه! إنفجرت بها العاملة ذات الجدائل ضاحكة. فصرخت بها صاحبة المحل: ليندا!

وضع بارباغاللو النقود في جيبه وخرج قائلاً: سلام يا ليندا. حينها كانت قد سرت في الطابور إشاعة مفادها أنه ليس هناك ثياب كافية للجميع.

ـ أولاً لي أنا، فأنا عار!

قالها بارباغاللو ونجح بالوقوف في رأس الطابور وعند الباب قالت له خادمة الخوري بتضرع: بلا أي شيء تحت!؟ كيف ذلك! إنتظر، لا لا تدخل!

ـ دعيني أمر أيتها القيِّمة وإلا فسأجعلك تقترفين الخطيئة، أين المحترم؟

ودخل إلى شقة الخوري بين القلوب المقدسة المدماة الموضوعة في أطر

باروكية، والخزائن العالية جداً، والصلبان المنتشرة على الجدران كالطيور السوداء. فنهض «دون غريللو» عن مكتبه وشرع في ضحكة مقهقهة:

– أوه، أوه، أوه! من الذي ألبسك بهذه الطريقة؟ أوه، أوه، أوه....

– قل لي يا أبتِ هل اليوم، هو يوم توزيع الثياب الداخلية من الفلانيله؟ ولكنني هنا من أجل السراويل فهل عندك منها؟

كان الخوري قد ارتمى على كرسيه ذي المسند العالي وهو يضحك بذقنه المزدوجة وكرشه يقفز للأعلى: لا، لا... أوه، أوه، أوه لا ليس لدي منها...

– أنا لا أطلب منك أبداً زوجاً من سراويلك... أريد أن أقول أنني سأبقى هنا حتى تهتف للمطران وتجلب لي زوجاً.

– هو ذاك، هو ذاك يا ولدي. إلى المطران، إذهب إلى المطران أوه... أوه.... وسأعطيك بطاقة مني له.

– بطاقة. والثياب الداخلية؟

– كفى، كفى أوه، أوه، أوه انتظر قليلاً يا ولدي.

وبدأ يقلب بذلات الكنزات والسراويل الداخلية، ولكنه لم يكن يجد من القياسات الكبيرة ما يناسب بارباغاللو. وعندما عثر على القياس الأكبر قال بارباغاللو: سألبسه الآن.

فاستطاعت خادمة الخوري أن تهرب في الوقت المناسب إلى فسحة الدرج قبل أن يخلع رداءه.

ثم بدأ بارتداء البياضات، لم يعد «دون غريللو» ليتوقف عن الضحك وهو يرى ذلك الرأس الشبيه برأس غاريبالدي مشدوداً من الرقبة الى مفاصل الرسغين، وحتى العرقوبين داخل الكنزة والسروال الداخلي شديدي اللصوق، وبزوج الأحذية في قدميه.

– أي. ي!! صرخ بارباغاللو وانزوى وكأنه تلقى الصدمة.

– ما بك، ما بك يا ولدي؟

– إنها تقرصني، تقرصني في كل مكان... يا للكنزة السيئة التي أعطيتني أيها الموقر؟ إن جسمي يحكني بأكمله...!

ـ هيا،... هيا هذا مفهوم فهي جديدة، ثم إنك ستعتادها.

ـ أي، إن بشرتي ناعمة وقد تعودت الآن أن أبقى عارياً.... آه كم تقرصني. والتوى ليحك ظهره.

ـ هيا، هيا يكفي أن تغسلها مرة واحدة وستصبح ناعمة كالحرير... والآن إذهب إلى العنوان الذي أعطيتك وسينظرون بأمر منحك بذلةً، هيا ـ وكان يدفعه نحو الباب جاعلاً إياه يرتدي معطفه.

لم يعد بارباغاللو يبدي أية مقاومة. فقد كان في تلك اللحظة رجلاً مغلوباً. أغلق الباب خلفه. وشرع ينزل محنياً منتحباً متفحصاً نفسه. وبدأ جميع أولئك الذين ما زالوا في الطابور على السلم يسألونه: ماذا فعلوا لك! هل ضربوك؟ يا للوقاحة، خوري يضرب الفقراء! ولكن، يا للسروال الجميل! وكانوا ينظرون إلى عظام ساقيه المغلفتين بقماش الفانيلا الأبيض.

كان بارباغاللو يبدو وكأنه قد شاخ عشر سنوات أخرى، وقد انتفخت عيناه الزرقاوان بالدموع. مرَّ أمام باب متجر الفراء وفجأة استدار وتوقف عن تأوهه وقرع الباب.

أخرجت العاملة ذات الجدائل رأسها من الباب وقالت...

ـ ولكن...

ـ أنظري قال لها بارباغاللو وبابتسامة على وجهه الذي ما زال متباكياً أشار إلى السروال الداخلي الأبيض عند العرقوبين.

فقالت الصبية: أوه...

كان قد ولج إلى الداخل: اطلبي لي السَّيدة، هيا!. فذهبت الصبية وبقفزة واحدة اختبأ بارباغاللو في حجرة جانبية وأقفل على نفسه. حضرت السَّيدة فابريتسيا فلم تره فعادت إلى مكانها هازةً رأسها وهي تقول: أنا لا أعرف لماذا لا يحجرون على المجانين.

ما أن دار المفتاح في القفل حتى نزع بارباغاللو المعطف عن كتفه والكنزة والحذاء والسروال وتنفس فرحاً، وأخيراً ها هو عار. رأى انعكاس صورته في مرآة كبيرة فنفخ عضلاته وانحنى بأطرافه، لم تكن هناك تدفئة بل برد زمهرير إلا أنه كان مع ذلك راضياً وبدأ ينظر حوله.

كان قد أغلق على نفسه في مستودع مخزن فابريتسيا. حيث علقت على مشجب طويل بانتظام جميع أنواع الفراء. التمعت عينا العتال العجوز فرحاً. فراء!! وبدأ يمر بيده عليها الواحدة تلو الأخرى وكأنه يعزف على القيثارة. ثم راح يفرك بها كتفه ووجهه. كانت هناك معاطف فراء من النمس الرمادي والأشهب، ومعاطف من الأستراخان ذات النعومة المتناهية، وفراء ثعالب فضية كغيوم ناعمة، فراء السنجاب والسمور، الخفيفة جداً الناعمة، وفراء القندس البني المتين والقيِّم، وفراء الأرانب السذج اللائقة وفراء الماعز الأبيض المبرقش ذو الأهداب الخشنة، وفراء الفهود بلمستها التي تشيع القشعريرة. تنبه بارباغاللو إلى أن أسنانه كانت تصطك من البرد. فتناول سترة من فراء الحملان وقاسها. كانت تبدو عليه وكأنها خيطت له خصيصاً ثم أحاط جانبيه بفراء ثعلب محركاً ذيله الأصهب كالتنورة. بعد ذلك تدثر بمعطف من فراء (الديغ ديغ) الذي لا بد وأنه خيط لامرأة رائعة الجمال لا مثيل لها. ولنعومته الشديدة استطاع أن يغطيه بأكمله. كما وجد زوجاً من الأحذية الطويلة المبطنة بفراء القندس وقبعة جميلة أيضاً. حينها كان على أحسن حال ووضع فروة اليدين وأصبح على أحس حال. فتبختر أمام المرآة لفترة من الزمن ولم يعد ليفلح بتمييز ما كان لحية وما كان وبر حيوان.

كان المشجب ما يزال مكتظاً بمعاطف الفراء فرماها بارباغاللو على الأرض الواحد تلو الآخر حتى أمَّن تحته سريراً واسعاً ووثيراً يغرق فيه. وحينها تمدَّد وأسقط فوقه كالجرف جميع معاطف الفراء التي كانت قد بقيت. كان هناك دفء من الخطأ الاستسلام للنوم فيه إلا أنه كان من اللذة بحيث يسترخي المرء فيه... قاوم العتال العجوز قليلاً ثم غرق بعدئذٍ في نوم هادىء بلا أحلام.

استيقظ ورأى الليل من النافذة وكل ما حوله في سكون. كان محل الفراء مغلقاً بالتأكيد ومن يدري كيف كان سيستطيع الخروج. أرهف السمع فبدا له صوت سعال في الحجرة المجاورة، ومن فتحة القفل كان يتسرب الضوء.

نهض متبرجاً بمعاطف الفيزون والثعالب والظباء والقبعات وفتح الباب ببطء. كانت العاملة ذات الجدائل تخيط في ضوء مصباح وهي منحنية على طاولة صغيرة. ونظراً لقيمة البضائع الموجودة في المخزن فإن السيدة باتريتسيا كانت تبقي فتاةً للنوم في سرير صغير بالمشغل حتى تستطيع إعطاء الإنذار في حالة السرقة.

ـ ليندا، قال بارباغاللو. فحملقت الفتاة بعينيها ورأت في دائـرة النور الخفيف ذلك الدب البشري الضخم بيديه المتصالبتين داخل فروة اليدين المصنوعة من فراء الأستراخان وقالت:

ـ ... جميل جداً...

خطا باربـاغاللـو بضع خطـوات إلى الأمام والخلف متبختـراً كالطـاووس، كعارضة أزياء.

فقالت ليندا:... لكنني الآن يجب أن أخبر الشرطة.

ـ الشرطة! ـ غضب باربـاغاللو وقال: لكنني لا أسرق أبداً، ماذا سـأفعل بهـا؟ ليس بوسعي بكل تأكيد أن أتجول هكذا في الطـرقات. لقـد أتيت إلى هنا فقط كي أنزع الكنزة التي تحكّني.

اتفقا على أن يمضي الليل وأن يرحل من هناك عند الصباح الباكر. كمـا أن ليندا كانت تعلم كيفية غسل الثياب بطريقة تجعلها لا تقرص.

سـاعدهـا باربـاغاللـو بعصرها ووضــع الحبل حتى تنشرهـا قرب مـدفـأة كهربائية. وكان لدى ليندا بعض التفاح الكندي فأكلا منه. ثم قال باربـاغـاللو: لنرى قليلاً كيف تبدين بمعاطف الفـراء هذه. وجعلهـا تجربهـا كلها وبجميـع المقاسات بجدائلها وبشعرها المنساب، وتبادلا الإنطباعات حول نعومـة وطراوة مختلف الأنواع على البشرة العارية. وفي النهـاية بنيـا كوخـاً كله من الفـراء، كوخاً كبيراً ودخلا ليناما فيه.

عنـدما استيقظت لينـدا وجدتـه أنه كـان قد أستيقظ قبلهـا وكان يـرتدي الكنزة والسروال الداخلي. ومن النافذة كانت خيوط الفجر تدخل.

ـ هل جفت الملابس؟

ـ ما تزال رطبة قليلاً ولكن يجب عليَّ أن أرحل.

ـ أما زالت تقرص؟

ـ بل إني أحس بنفسي كالبابا.

ثم ساعد ليندا على ترتيب المخزن بأكمله وارتدى معطفه العسكري وحياها عند الباب.

مكثت ليندا تنظر إليه بينما كان يبتعد وخط السروال الأبيض يبدو بين المعطف والحذاء، وعفرة شعره المزهوة في برد الفجر.

لم تكن لدى بارباغاللو النية للذهاب إلى المطران للحصول على البذلة فقد خطرت له فكرة التجوال في الساحات والبلدان في طقم الثياب الداخلية كي يستعرض قواه.

الذهاب الى مقر القيادة

من مجموعة وأخيراً يأتي الغراب

كانت الغابة مبعثرة، شبه مدمرة بفعل الحرائق، رمادية بجذوع الأشجار المحترقة ومحمرَّة بأبر الصنوبر الجافة. وصل إليها الرجل المسلح والرجل الأعزل نازلين بتعرج ما بين الأشجار.

كان المسلح يقول: إلى مقر القيادة، نحن ذاهبان إلى مقر القيادة. لنقل نصف ساعة من المسير على أبعد حد.

ـ وبعد ذلك؟

ـ وبعد ذلك ماذا؟

ـ أريد أن أقول: لا أدري إذا ما كانوا سيسمحون لي أن أذهب بعد ذلك.

قالها الرجل الأعزل وهو يصغي بانتباه إلى كل إجابة مقطعاً مقطعاً وكأنه يبحث عن إشارة زائفة.

ـ بكل تأكيد سيدعونك تذهب.

قال له المسلح وأردف: سأعطيهم وثيقة الكتيبة وسيضعون إشارة على السجل وعندها سيكون بإمكانك العودة إلى البيت.

كان الأعزل يهز رأسه متشائماً: آهٍ، إنها أشياء مطولة، أفهم... كان يقولها ربما فقط كي يسمعها مكررة.

ـ قلت لك سيتركونك على الفور.

ـ كنت أحسب حسابي ـ أضاف ـ كنت أحسب حساب أني سأكون في البيت هذا المساء. صبراً..

فأجابه المسلح: أقول لك إنك ستصل إليه، تنتظر بما يكفيهم لكتابة المحضر وسيتركونك بعد ذلك. من اللازم جيداً أن يشطبوا اسمك من سجل الجواسيس.

- ألديكم سجل للجواسيس؟

- بالتأكيد لدينا، فنحن نعرف كل أولئك الذين يتجسسون وسنمسك بهم واحداً تلو الآخر.

- وفيه اسمي؟

- حقاً، فيه اسمك أيضاً ومن الضروري الآن أن يشطبوه وإلَّا فإنك ستتعرض لإلقاء القبض عليك مرة أخرى.

- إذاً من الضروري تماماً أن أذهب أنا إلى هناك، أن أشرح لهم القصة كلها.

- ها نحن ذاهبان. من الواجب طبعاً أن ينظروا وأن يدققوا.

- ولكن الآن، قال الرجل الأعزل، الآن تعلمون أنني من جماعتكم وأنني لم أتجسس أبداً.

- بالضبط. نعرف ذلك الآن، وأنت الآن مطمئن.

وافقه الأعزل وهو ينظر حوله إذ كانا داخل فرجة كبيرة مضاءة من الغابة فيها أشجار الصنوبر والأرز النحيلة المقتولة من الحرائق والمكتظة بالأغصان الساقطة. كانا قد تركا ووجدا مجدداً وسلكا الدرب سائرين بلا قصد بين أشجار الصنوبر النادرة وهما يعبران الغابة. لم يكن الأعزل يعرف تلك الأمكنة وكان المساء يتصاعد بأمواج رقيقة من الضباب والغابة تتكاثف عند الأسفل في الظلام.

كان الابتعاد عن الدرب يقلقه. وحاول بعدما رأى أن الآخر يبدو وكأنه يسير على غير هدى، حاول أن ينعطف إلى اليمين حيث ربما كان الدرب يتابع خطه إلَّا أن الآخر انعطف هو أيضاً نحو اليمين وكان ذلك بمحض الصدفة، وإذا ما كان قد استأنف هو متابعته حسبما كان المسير أكثر سهولة ويسراً كان يتابعه إلى اليسار أو إلى اليمين.

قرر أن يسأله: ولكن أين مقر القيادة؟

أجابه المسلح: إننا ذاهبان إليه وستراه الآن.

ولكن في أي مكان، أي منطقة تقريباً؟

أجابه: كيف لك أن تقول ذلك؟ لا يقال إن مقر القيادة في مكان أو في منطقة ما. أنت تفهم أن مقر القيادة هو حيث مقر القيادة.

كان يفهم، كان الأعزل رجلاً يفهم الأمور ومع ذلك فقد سأله:

- لكن أليست هناك طريق للذهاب إليه؟

أجابه الآخر: طريق أنت تفهم. إن الطريق تؤدي دائماً إلى مكان ما وأنت تعي أن المرء لا يتوجه إلى مقر القيادة عبر الطرقات.

كان الأعزل يفهم، فقد كان رجلاً يفهم الأمور، رجلاً ذكياً.

سأله: هل تذهبون مراراً إلى مقر القيادة؟

فقال المسلح: مراراً، أذهب إليه مراراً.

كان ذا وجه حزين لا نظر فيه. يعرف القليل من الأماكن ويبدو بين الحين والآخر وكأنه قد ضل الطريق ومع ذلك فقد كان يتابع المسير لا يأبه لشيء. فسأله الأعزل وهو يتفحصه:

- هل لأن دورك في السخرة هذا اليوم فقد أرسلوك لاصطحابي؟ فأجابه: إن أمر اصطحابك هو عمل أوكل إليَّ. فأنا اصطحب الناس إلى مقر القيادة.

- هل تكون الساعي؟

- هو ذاك، الساعي. قال المسلح.

كان الأعزل يفكر: إنه لساع غريب هذا الذي لا يعرف الأماكن، وتابع مفكراً: لكنه اليوم لا يريد أن يسلك الطرقات حتى لا أعرف أنا أين مكان مقر القيادة لأنهم لا يثقون بي.

إنها لعلامة سيئة أنهم لا يثقون به أيضاً. واستبد به التفكير بهذا الأمر إلا أن أماناً كان ضمن تلك العلامة السيئة وهو أنه كان يقوده حقاً إلى مقر القيادة وأنهم سيتركونه حراً. وخارج تلك العلامة السيئة هناك علامة أسوأ منها أيضاً ألا وهي الغابة التي كانت تتكاثف أكثر فأكثر حيث لا يستدل على الخروج منها، وكذلك صمت وحزن ذلك الرجل المسلح.

- هل اصطحبتم السكرتير أيضاً والأخوين صاحبي الطاحون والمعلمة الى مقر القيادة؟ سأل ذلك السؤال دفعة واحدة دون أن يفكر به لأنه السؤال الحاسم الذي كان يعني له كل شيء. فسكرتير البلدية والأخوان والمعلمة كانوا جميعهم أناساً اقتيدوا بعيداً ولم يعودوا قط، ولم يعرف عنهم أي شيء أبداً. قال المسلح: لقد كان السكرتير فاشياً، أما الأخوان فكانا من عناصر المليشيات، والمعلمة من مساعديهم.

- كنت أقول ذلك لأعرف شيئاً على اعتبار أنهم لم يعودوا على أعقابهم ثانيةً.

فألح المسلح: قلت لك أنهم كانوا ما كانوا، وأنتم تكونون ما أنتم وليس هناك من مجال للمقارنة.

- بالتأكيد «قال الآخر» ليس هناك من مجال للمقارنة. كنت أسألك فقط عما جرى من أمرهم هكذا للفضول.

كان الأعزل يشعر أنه واثق من نفسه بشكل عظيم فقد كان الرجل الأكثر ذكاءً في البلدة وكان من الصعب أن يفعلوها معه فالسكرتير والمعلمة لم يعودا ثانية. بينما هو فإنه سيعود كان سيقول للماريشال (بمزيج من الإيطالية والالمانية والفرنسية والانكليزية): «أنا أيها الرفيق العظيم. لن يستطيع الانصار أن يسحقوني. أنا سأسحقهم» وربما كان الماريشال سينفجر ضاحكاً، لكن الغابة المحروقة كانت لا نهاية لها وأفكار الرجل مطوقة بالمجهول مثل فرجة مضاءة وسط غابة ما.

- أنا لا أعرف جيداً ما جرى للسكرتير وجميع أولئك الآخرين فأنا أقوم بعمل الساعي.

فألح الأعزل: ولكنهم سيعرفون ذلك في مقر القيادة.

- هو ذاك، فلتسألهم عن ذلك في مقر القيادة. هناك يعرفون ذلك.

كان الوقت أصبح مساءً لذا كان من الضروري أن يسيرا بحذر وسط الضباب منتبهين إلى مواضع أقدامهما كي لا يتزحلقا على الأحجار المخفية تحت الأحراش الرقيقة. وأن ينتبه الرجل الأعزل إلى تقاطر الأفكار الواحدة تلو الأخرى ضمن القلق المتزايد كي لا يجد نفسه فجأة مكفناً بالخوف. لو أنهم كانوا يعتقدون أنه جاسوس فإنهم ما كانوا ليتركونه هكذا في الغابة بكل

تأكيد، وحيداً مع ذلك الرجل الذي كان يبدو على الأقل وكأنه لا يعيره الانتباه. فقد كان باستطاعتــه أن يهرب في كــل المرات التي كــان يريــدها. ومــاذا كان سيفعل الآخر فيما لو حاول الفرار؟

نــازلاً وسط الأشجار بـدأ الأعزل بــالابتعاد قليـلاً والإنعطاف نحــو اليمين عندما كان الآخر ينعطف نحو اليسار. لكن المسلح كان يتـابع مســيره تقريبــاً دون أن ينتبه إليه. كانا ينزلان على هذا النحو داخل الغابة المبعثرة مبتعـدين أحياناً الـواحد عن الآخـر. في تلك السـاعة كـانا أيضـاً يغربـان عن ناظـري بعضهما مختفيين وراء جذوع الأشجار وأحراش الشجيرات الصغـيرة إلّا أن الأعزل كان عند بعض المقاطع يعود ليرى الآخر إلى الأعلى منه، فيبدو وكأنه لا يعيره الإنتباه إلا أنه كان يبقيه دائماً خلفه على بعدٍ منه.

«إذا ما تركوني حراً للحظة واحدة فستكون تلك هي المرة التي لن يمسكوا بي بعدها» كان الأعزل قـد فكر بـذلك حتى تلـك الساعـة ولكنه الآن اكتشف نفسه يفكر: هذه هي الفرصة لأفلح بالهرب منه....».

إلّا أنه كان يرى في مخيلته مسبقاً الألمان، الألمان في طوابـيرهم، ألمان عـلى الشاحنات والعربات المـدرعة. وبـدت رؤى الموت بـالنسبة لـلآخرين والأمـان بالنسبة له، هو الرجل الذكي، الرجل الذي لا يمكن لأحد أن يوقع به.

كانا قد خرجا من فرجة الغابـة والضباب ودخـلا الغابـة الكثيفة الخضراء التي وفرتها الحرائق. كانت الأرض مغطاة بأبر الصنوبـر اليابســة. وقد بقي الرجل المسلح إلى الخلف وربما قـد سلك مســاراً آخر. عنـدها أسرع الأعـزل الخطى حذراً لاهثاً ولسانه بين أسنانه واندفع أكثر ضمن الأجمـة نازلاً نحـو المنحدرات بين أشجار الصنوبر وتنبه إلى أنه كان هارباً فانتابه الخوف عندئذٍ لكنه فهم في تلك اللحظة أنه قد ابتعد كثيراً وأن الآخر كان قد تنبه بكل تأكيد إلى رغبته بالهروب وأنه كان يتعقبه بكل تأكيـد فلم يعد أمــامه ســوى متابعـة الركض، فالويل له إذا ما كان سيقع ثانية على مرمى الآخر الآن بعد أن حاول الهرب.

إلتفت إلى وقع حوافر إلى الأعلى منه. على بعد بضعة أمتـار منه كـان هناك الرجل المسلح قادماً نحوه بخطاه الهادئة غير مبالٍ ، وكان ســلاحه بيـده فقال له: من هنا لا بد وأن تكون هناك طريق مختصرة، وأشار إليه أن يتبعه.

عندئذٍ عاد كل شيء كالسابق، عالم غامض كله شر أو كله خير، الغابة التي كانت تتكاثف بدلاً من أن تنتهي، وذلك الرجل الذي كان يتركه تقريباً كي يهرب دون أن يقول شيئاً.

سأل: ولكن ألن تنتهي أبداً هذه الغابة.

فقال له الآخر: سنصل ما أن ندور حول تلك التلة، تشجَّع فستكون هذه الليلة في بيتك.

- هكذا، سيتركونني بكل تأكيد لأذهب إلى البيت؟ أقول مثلاً ألا يريدون الاحتفاظ بي كرهينة؟

- نحن لسنا ألمان بالطبع كي نأخذ رهائن. على أقصى حد يمكن أن يأخذوا منك حذاءك رهينة لأننا جميعاً نصف حفاة.

بدأ الرجل يدمدم وكأنما أصبح الحذاء الشيء الذي يخاف عليه أكثر من أي شيء آخر، إلا أنه في الواقع هنأ نفسه على ذلك. فكل خصوصية تتعلق بمصيره خيراً كانت أم شراً كانت تخدمه لتمنحه قليلاً من الأمان.

قال له المسلح: اسمع، وقد رأيت أنك متعلق به كثيراً فلنفعل هكذا، فلتنتعل أنت حذائي طالما نحن في مقر القيادة لأن حذائي مهترىء بأكمله ولن يأخذوه منك أما أنا فسأنتعل حذاءك وسأعيده لك عندما نعود أدراجنا. عندها كان أي طفل سيفهم أن كل ذلك ما هو إلا محض اختلاق فقد كان الرجل المسلح يريد حذاءه. حسناً، لقد كان الأعزل سيعطيه كل ما كان يريد إذ أنه كان رجلاً يفهم وكان سعيداً بأن يتخلص من ورطته بثمن زهيد. كان سيخاطب الماريشال قائلاً:

- «أنا أيها الرفيق العظيم، أنا أعطيته حذائي، وهو تركني أذهب» ولا بد وأن الماريشال سيمنحه زوجاً من الأحذية الطويلة مثل أحذية الجنود الألمان.

- إذاً، أنتم لا تحتجزون أحداً رهينةً أو سجيناً؟ ولا حتى سكرتير البلدية أو الآخرين؟

- لقد جعلهم السكرتير يأخذون ثلاثة من رفاقنا أما الأخوان فقد قاما بعمليات التمشيط مع المليشيات والمعلمة كانت تضاجع رجال الفرقة العاشرة.. توقف الرجل الأعزل وقال: إنك لا تصدق أبداً أن أكون أنا جاسوساً أيضاً،

إنـك لم تقتادني إلى هنـا أبداً كي تقتلني. وكشف عن أسنـانه قليـلاً وكـأنـه يبتسم.

فقال المسلح: لو كنا نعتقد أنك جاسوس فإنني ما كنت لأنتظر كثيراً حتى أفعل هكذا ـ وأزاح أمان السلاح ـ هكذا ـ صوبه باتجـاه الكتف وأظهر أنـه سيطلق النار عليه.

كان الجاسوس يفكر: ها هو لن يطلق.

لكن الآخر لم يخفض سلاحه بل أنه ضغط على الزناد بدلاً من ذلك.

فكر وقتها الجاسوس: إنه يطلق طلقات خلبية، خلبية. ولكنـه عندمـا أحس بالطلقات تنهمر عليه كضربـات من نار لا تتـوقف أبداً أفلـح أيضاً بـالتفكير: يعتقد أنه قتلني بينما ما أزال حياً.

خرّ بوجهه على الأرض وكان الشيء الأخير الـذي رآه هو زوج من الأقـدام التي تنتعل حذاءه تمر من فوقه، وبقي هكذا جثة في وسط الغابة بفمه الممتلىء بأبر الصنوبر،وبعد ذلك بساعتين كان قد غطاه النمل الأسود.



في المطعم الشعبي شوهدا

من مجموعة وأخيراً يأتي الغراب

فهمت على الفور أن أمراً ما قد حصل. فقد كان الإثنان يتبادلان النظر عبر الطاولة بعيون خالية من التعبير كسمك في حوض مـاء. ولكن كان يُفهم أنهمـا غريبان وبعيـدان بشكل لا يُقـدر أحدهمـا عن الآخر مثـل حيوانـين غريبـين يتفحصان بعضهما ويساورهما الشك.

وصلت هي أولًا، كانت امرأة ضخمة ترتدي السواد، أرملة بالتأكيد. أرملة ريفية حضرت إلى المدينة للتجارة، هـذا ما اتضـح لي على الفـور. ففي المطاعم الشعبية التي يُؤكل فيها بستين ليـراً، وحيث أتناول طعـامي يأتي أيضـاً هذا النوع من الناس، من تجار السوق السوداء الكبار والصغـار بميل لـلإقتصاد بقي لـديهم من أزمنة البؤس وبميـول للإسراف بـين الحين والآخـر، وعندمـا يتذكرون أن جيوبهم ملأى بأوراق الألف لير، ميولٌ تجعلهم يطلبون المعكـرونه الشريطية وشرائح لحم البقر بينما نحن الآخرون جميعاً، العازبين ربمـا نأكـل بالبطاقة ونمط أعيننا ونبتلع ملاعق الحسـاء. لا بد وإن الإمـرأة كانت تـاجرة غنيـة في السوق الســوداء، إذ كانت وهي جـالسةٌ تشغـل جانبـاً من الطاولـة وتخرج من حقيبة يدها خبزاً أبيض وفواكه وأجباناً مغلفة بالورق بشكـل سيء لتغـزو بها غطـاء الطاولـة. وأثناء ذلـك كانت بشكـل آلي تقطف حبـات العنب وتتناول قطع الخبز بأصابعها ذات الأطراف السوداء لتحملهـا إلى فمها حيث تختفي في مضغٍ مختنق.

حينئذٍ كان قد اقترب هو بعدما رأى المقعد شاغراً وأمـامه زاويـة من غطاء الطاولة ما تزال فارغة فسألها:

ـ هل تسمحين؟

فنظرت إليه الإمرأة بشكل عابر وهي تمضغ. فسألها أيضاً:

ـ عفواً... أتسمحين؟

فما كان من المرأة إلاَّ أن باعدت ما بين ذراعيها وأصدرت تذمراً من فمها المتلىء بالخبز الممضوغ. فحيَّاها الرجل رافعاً قبعته عن رأسه بشكل خفيف وجلس. كان عجوزاً شديد النظافة ومنهكاً بياقته المنشّاة وبمعطفه على الرغم من أن الفصل لم يكن شتاءً آنئذٍ، وبسلك جهاز السمع الطبي الذي كان يتدلى من أذنه. وبرؤيته يشعر المرء على الفور بعدم الإرتياح بالنسبة له بسبب تهذيبه الشديد الذي يبدو من كل حركة يأتي بها. لقد كان بالتأكيد نبيلاً حطت به الأيام، سقط فجأة من عالم مليء بالمجاملات والإنحناءات إلى عالم مليء بالتدافع والقبضات في الجوانب دون أن يكون قد فهم شيئاً من ذلك متابعاً القيام بانحناءاته بين جمهور المطعم الشعبي وكأنه في حفل استقبال في البلاط.

حينها أصبحا الواحد تجاه الآخر، الغنية الجديدة والغني السابق كحيوانين غريبين الواحد منهما عن الآخر. كانت الإمرأة عريضة وقصيرة ذات يدين كبيرتين حلتا على غطاء الطاولة كقائمتي السرطان وبحركة تنفس كتنفس السرطان في الحلق. بينما كان العجوز جالساً على طرف الكرسي بمرفقيه الملتصقين إلى جانبيه ويديه ضمن القفازات مشوهتين بفعل التهاب المفاصل، وبعض الأوردة الصغيرة الزرقاء القاتمة اللون البارزة على وجهه كما يحدث على حجر أحمر بسبب حزاز الصخر. ـ معذرة للقبعة ـ

قالها ولكن الإمرأة كانت تنظر إليه بصفار عينيها ولم تكن لتفهم شيئاً منه، فكرر الرجل ثانية:

ـ عذراً إذا ما أبقيت القبعة على رأسي إذ أن هناك قليلاً من الهواء... عندها آتت الأرملة الضخمة بابتسامة على زوايا فمها المحاط بزغب كزئبر الحشرات وبدون أن تحرك عضلات وجهها تقريباً، ابتسامة مبتلعة. وبصوت يخرج من بطنها قالت للخادمة التي كانت تمر قربها:

ـ نبيذ.

طرف العجوز ذو القفازات بعينيه عند سماعه تلك الكلمة، لا بد وأن النبيذ

سيشعره بالمتعة فقد كانت العروق البـارزة على رأس أنفـه تشهد عـلى خبرتـه الطويلة والمرهفة كذواق ولكنه كان قد أعرض عن شرب الخمر منذ زمن.

ساعتها كانت الأرملة الضخمة تغمس قطع الخبز الأبيض في كأس النبيـذ ثم تمضغه وتمضغه.

وكانت تأخذ العجوز ذو القفازات نوبات من الخجل في بعض المرات وكأنـه جالس يغازل امرأة يخاف أن يظهر نفسه أمامها بمظهر البخيل. فقال:

– نبيذ لي أيضاً!

بعـد ذلك وعـلى الفور نـدم على تلفظـه بها. وفكـر أنه ربمـا بدد معـاشـه التقاعدي قبل نهاية الشهر وتوجب عليه أن يصوم أياماً وأيام متدثراً بمعطفـه وهو قابـع في برد سقيفتـه. لم يسكب النبيذ في الكـأس. «وفكر ربمـا أمكنني إعادته دون أن ألمسه وسأقول أن شهيتي قد انقطعت ولن أدفع ثمنه».

وقد انقطعت شهيته حقاً وكذلك شهيته للطعام بينما كان يرتشف الحسـاء عديم الطعم ماضغاً الطعام تحت أسنانه القليلـة. أما الأرملـة الضخمة فقـد كانت تبتلع شوكاً ملأى بالمعكرونة الدسمة بالزبدة.

كنت أفكر: «نأمل أن يمكثا الآن صـامتين وأن ينتهي أحـدهما من طعـامه سريعاً وينصرف» لا أدري من أي شيء كنت خائفاً. فقد كانا كـائنين مسخـين الـواحد أو الآخـر، مشحونـين تحت تلك المظـاهر الخـاملة للقشريـات بعداوة متبادلة ومخيفـة وكنت أتخيل عـراكاً بينهمـا أشبه بـافتراس وحـوش اللجج البحرية.

سبق وكان العجوز شبه محاصر بمؤن الأرملة في خرطوشاتهـا المنتثرة عـلى الطاولة متاخمة في زاويـة ما حسـاءه عديم الطعم رغيفي البطـاقة الـرقيقين. وعمل ليسحب رغيفيه إلى الخلف خشيـة أن يضيعا في الحقـل المعادي ولكنـه بحركة خاطئة من يده المقفزة والمشوهة صدم قطعة من الجبن فوقعت أرضاً.

كانت الأرملة الضخمة أمامه تضحك هازئة.

– أعذريني... اعذريني.

قال الرجل ذو القفازات وكانت الأرملة تنظر إليه كما ينظر إلى حيوان جديد ولم ترد عليه.

وكنت أفكر: لا بد وأنه سيصرخ الآن كفى! وسيمزق غطاء الطاولة!.

إلّا أنه على العكس من ذلك، انحنى وأتى بحركات مرتبكة تحت الطاولة ليبحث عن قطعة الجبن. مكثت الأرملة الضخمة قليلاً وهي تنظر إليه وبعدئذ وبدون أن تتحرك تقريباً أنزلت إحدى قائمتيها الضخمتين نحو الأرض وتناولت قطعة الجبن ونظفتها واقتربت بها من فمها الذي يشبه فم الحشرات وابتلعتها قبل أن يكون العجوز ذو القفازات قد ظهر ثانية أيضاً. وأخيراً نهض متألماً بسبب الجهد محمراً من الإرتباك بقبعته المائلة وانحراف سلك جهازه السمعي.

وكنت أفكر: ها، الآن سيمسك بالسكين ويقتلها! ولكنه على العكس من ذلك كان يبدو أنه لم يكن ليجد الطريقة التي يعزي بها نفسه للصورة السيئة التي كان على اعتقاد أنه ظهر بها وانتابته رغبة بالكلام والتحدث حول أي موضوع حتى يبدد ذلك الجو غير المريح. ولكنه لم يكن ليفلح بلفظ جملة لم تكن تولد من ذلك الإنزعاج، أو لم تكن جملة اعتذار. فقال:

ـ قطعة الجبن تلك... حقاً خسارة... يؤسفني.

لم يعد يكفي الأرملة الكبيرة إهانته بصمتها بل أنها زيادة على ذلك كانت ترغب أن تسحقه.

فقالت: لقد أحضرت منها ما يكفيني، وفي «كاستل براندونه» لدي من ذلك الجبن كتل كبيرة هكذا، وأتت بحركة. ولكن لم تكن سعة الحركة هي التي أثارت العجوز ذو القفازات.

كاستل براندونه.

قالها وكانت عيناه تلتمعان. لقد كنت في كاستل براندونه كملازم في العام ٩٥، من أجل الرمايات. وأنت التي من هناك لا بد وأنك تعرفين بكل تأكيد «كونتات براندونه داسبرتز»! لم تعد الأرملة تضحك هازئة فقط وإنما كانت تضحك وتضحك ثم تتلفت حولها لترى فيما إذا كان الزبائن الآخرين قد لاحظوا كم كان ذلك الرجل مثيراً للسخرية. وتابع العجوز: لا بد وأنك لن تتذكري، ولن تتذكري بالتأكيد... ولكن في تلك السنة حضر الملك إلى كاستل براندونه ليشهد الرمايات! وأقيم له حفل استقبال في قلعة آل داسبرتز!

وحصل حينها الحدث الذي أقصه عليكِ... نظرت الأرملة إلى ساعة يدها، وطلبت صحناً من الكبد ثم تابعت طعامها بسرعة دون أن تعيره إنتباهها. وفهم العجوز ذو القفازات أنه كان يتحدث مع نفسه فقط... إلاّ أنه لم يتوقف... إذ أنه كان سيظهر بمظهر مخجل فيما لو توقف، وكان عليه أن يُتم القصة التي بدأها.

ـ دخل جلالته إلى قاعة الإستقبال المنارة بأكملها ـ وتابع والدموع في عينيه ـ فعلى جانب كانت تصطف السيدات بثياب السهرة يؤدين إنحناءة له، وعلى الجانب الآخر كنا نحن الضباط جميعاً في حالة استعداد. قبَّل الملك يد الكونتيسه وحيا الواحد تلو الآخر ثم اقترب مني...

كانت ربعيتا النبيذ متقاربتين على الطاولة. زجاجة الأرملة وقد فرغت تقريباً بينما كانت زجاجة العجوز ما تزال ملأى. سكبت الأرملة وهي منتشية النبيذ من الربعية الملأى وشربت فانتبه العجوز إلى ذلك رغم أنه كان في خضم قصته. ها، حينها لم يعد هناك من أمل وكان عليه أن يدفع ثمن النبيذ حتى ولو كانت ستشربه الأرملة الضخمة تقريباً. ولكن ألن يكون أمراً حساساً جعلها تلاحظ غلطتها، ربما كانت ستبقى مستاءةً جراء ذلك. لا، ألن يكون أمراً حساساً...!

ـ وسألني جلالته وأنت يا ملازم أول؟ هكذا سألني تماماً، فأجبته وأنا في حالة استعداد: الملازم كلير مونت دو فرونجس يا جلالة الملك. فقال الملك: كلير مونت! لقد عرفت أباك، وقد كان جندياً شجاعاً!. وشدَّ على يدي هكذا قال لي تماماً: جندياً شجاعاً!

كانت الأرملة الضخمة قد فرغت من طعامها ونهضت. وكانت تنقب حينها في حقيبتها الموضوعة على كرسي آخر. كانت منحنية ويرى منها إلى ما فوق الطاولة مؤخرتها فقط. مؤخرة ضخمة لإمرأة سمينة مغطاة بقماش أسود. وأما العجوز كلير مونت دوفرونجس فقد كانت أمامه هذه المؤخرة الكبيرة التي كانت تتحرك. وهو يتابع قصته وقد تغير وجهه.

ـ ... كل القاعة بثرياتها المضاءة ومراياها... والملك الذي كان يشد على يدي ويقول لي أحسنت يا كلير مونت دوفرونجس... وجميع السيدات حولنا بثياب السهرة.

أحاديث حول الأهمية

كنا هناك نمهِّدُ الأرض فقال أنطونيو: في بعض المرات نشعر أن لنا أهمية». قلت له: «في بعض المرات». أما هو فقد أردف: إن العالم يدور على سبيل المثال فهل تعتقد أن شخصاً آخر سيعود ويمهد الأرض في هذا المكان حيث أقف أنا الآن؟. قلت له: إنهم يمهدون الأرض عادة في هذه الأمكنة.

لكنه قال: «أنت لم تفهم ما أريد قوله» وتابع «أي أن يأتي شخص آخر تماماً إلى هذا المكان هنا، ويضع قدميه واحدة هنا والأخرى هنا حيث أضع قدمي ويمهّد هكذا تماماً مثلما أمهد أنا الأرض الآن».

– إن الجميع يمهّدون الأرض بشكل متساو، قلت له ذلك لكنه لم يصغ إليّ.

– أنا أقول إن أحداً ما لم يمهد الأرض هنا، ولن يمهدها أحدٌ أبداً مثلما أمهدها أنا هنا.

فقلت له: سأجعلك ترى، سأذهب الآن وسأمهِّدُ الأرض. فقال لي: لا، هذا لا يساوي شيئاً فأنت تمهّدُ بطريقة مختلفة. قلت له: هل تعني أن مجرفتك مكسورة.

– أنت لا تفهم ما أقول، كرر لي، إن العالم هو الذي يختلف دائماً. وفي تلك اللحظة المحددة وفي ذلك المكان المحدد نضع هناك رجلاً يمهّد الأرض وبعد ذلك لا نضعه ثانية.

قلت له: علينا أن نعود لنمهّد الأرض عند الغد، إلّا أن أنطونيو كان معانداً وتابع: هل تفهم أن تاريخ العالم يصبح مختلفاً إذا ما مهّدت الأرض أو إذا لم أمهدها» وتوقف عن التحدث.

سألته: وماذا أنت فاعل الآن.

أجاب: هل ترى؟ في هذه اللحظة، في هذا المكان كان بالامكان وجود شخص يمهد الأرض، ولكنه، على العكس من ذلك، غير موجود. وهذا هو الشيء الجميل أي أن اللحظة لا تعود ثانية، وإذا ما كنت موجوداً فتمهد الأرض جيداً وإذا لم تكن فلا شيء. إن ضربة المجرفة التي كان بامكانك أن تضربها في تلك اللحظة لن تضربها ثانيةً ولن يحصل تاريخ العالم على ضربة مشابهة أبداً.

قلت: لنر، وتوقفت عن تمهيد الأرض. هل تغيَّر؟

فقال: ما الشيء الذي تغيَّر.

فقلت له: أقول إذا ما كان تاريخ العالم يتغيَّر؟

فألح: أنت لم تفهم، إنه يتغيَّر أيضاً لو مهَّدت الأرض. يتغير بذلك الكثير الذي تفعله أو لا تفعله وإذا ما فعلت شيئاً ما فإنك لا تقوم بشيء آخر وهكذا فإن تاريخ العالم يفقد ذلك الشيء الآخر. قلت له: بالتأكيد إن المرء يشعر بنفسه مهماً وهو يفكر بذلك. وسألنا الآخرون، لماذا لم نكن نمهِّدُ الأرض. فلم أعرف كيف أشرح لهم الأمر جيداً وقلت: إنه أنطونيو الذي يقول أشياء كثيرة وإن المرء يمهد الأرض بشكل مختلف.

فسأل الآخرون: وكيف يمهِّد المرء بشكل مختلف؟

أجاب أنطونيو: أريد أن أقول إن ضربة مجرفة أقوم بها أنا بطريقة ما وأضرب ضربة أخرى بطريقة مختلفة. وهكذا فإن ضربات شخص ما هي مختلفة فيما بينها ومختلفة أيضاً عن ضربات الآخرين.

سأله الأخرون وقد بدا عليهم إنشغال البال: حتى ضرباتنا أيضاً؟ وعلى الفور ذاع الخبر: هناك شخص يقول إن تمهيد الأرض يتم بشكل مختلف!.

كما شرع شخص اسمه جينو بالبكاء وقال: إنني أفعل الممكن كي أمهِّد الأرض بشكل متساو وليس بمستطاعي أن أفعل أكثر من ذلك. فغضب منه أنطونيو وقال: ماذاً، أتبكي أيها الأهبل؟ أنا مسرور لكوني أمهِّدُ الأرض بضربات مختلفة. لكن الجميع كانوا منشغلي البال وأصبحوا يفكرون قبل

القيام بضربة مجرفة. ولم يعد يرغب الكثيرون منهم بتمهيد الأرض وانصرفوا. وكانوا يقولون له:

- لقد أدخلت كثيراً من تلك الأفكار إلى رؤوسنا، إن تمهيد الأرض لم يعد بالنسبة لنا مثل ذي قبل ولا نستطيع مقاومة ذلك. وهكذا نحن ذاهبون من هنا.

استاء أنطونيو من ذلك وقال: ولكنني لم أقل ذلك أبداً من أجل ذلك الأمر. كنت أعتقد أنهم سيصبحون بعد ذلك أكثر سروراً وهم يمهدون الأرض.

- أنظر، شرحت له، لم يكن أحدٌ منا يفكر بهذه الأمور أبداً كنا نمهِّد الأرض وكفى.

فقال: ربما هذا، فأنا كنت أنظم القصائد من قبل.

سألته: متشابهة أم مختلفة؟

- مختلفة، دائماً تختلف الواحدة عن الأخرى. ثم إنني لم أكن سعيداً عندما وضعوني هنا لأمهد الأرض. إنما الآن، وبعد أن اكتشفت هذه العملية فإن تمهيد الأرض يبدو لي أكثر جمالاً. فقلت له: لا يبدو بالنسبة لي، وإنني لم أكن أفكر بذلك، ولم أعد أفلح الآن بتمهيد الأرض مثل ذي قبل، ولا أفكر بها إذا كانت متشابهة أم مختلفة. وهكذا فأنا ذاهب.

سألني: وأنت أيضاً؟

فقلت له: أنا أيضاً.

ولأنه كان حزيناً قلت له: تعال يا أنطونيو سأترك لك مجرفتي وهكذا يمكنك أن تجرف قليلاً بمجرفتك وتجرف قليلاً بمجرفتي وسيبدو لك أنك تقوم بذلك بشكل مختلف أكثر بكثير.

لم يقل شيئاً لكنه كان يبدو مسروراً من ذلك.



هناك من يقنع...

كان هناك بلد كل شيء فيه ممنوع، والشيء الوحيد غير الممنوع في ذلك الوقت هو لعبة العصا. كان الرعايا يجتمعون في بعض السهول خلف البلدة وهناك يلعبون بالعصا ويمضون الأيام.

وعلى اعتبار أن أوامر المنع قد صدرت شيئاً فشيئاً كل مرة، ولدواع مبررة دائماً، فإنه لم يكن هناك أحد يرى فيها عيباً أو لا يعرف كيف يتأقلم معها.

مضت سنوات، وذات يوم رأى القادة أنه لم يعد هناك من سبب يكون فيه كل شيء ممنوعاً، فأرسلوا الرسل لإعلام الرعايا أن بإمكانهم أن يفعلوا ما يشاؤون، وذهب الرسل إلى تلك الأمكنة التي يستخدمها الرعايا لاجتماعهم.

ـ اعلموا ـ أعلنوا لهم ـ أنه لم يعد هناك شيء ممنوع.

استمر هؤلاء بلعبة العصا، فألح عليهم الرسل: هل فهمتم؟.. أنتم أحرار تفعلون كل ما تريدون.

ـ حسناً ـ أجاب الرعايا ـ نحن نلعب بالعصا.

فأجهد الرسل أنفسهم ليذكروهم كم من النشاطات الجميلة والمفيدة أصبحت بمتناولهم وأنهم انتظروها طويلاً في الماضي. وكان بإمكانهم الانتظار من جديد منذ ذلك الوقت إلى ما شاء الله... إلّا أن أولئك لم يصغوا إليهم واستمروا باللعب، ضربة تلو الأخرى حتى بدون أن يأخذوا نفساً.

بعد أن رأى الرسل انه لا جدوى من محاولاتهم تلك ذهبوا لينقلوا ذلك إلى القادة.

فقال القادة: لنمنع لعبة العصا بأسرع ما يمكن.

وكانت تلك هي المرة التي قام بها الشعب بالثورة، فقتلهم جميعاً، وبعد ذلك وبدون أن يضيع الوقت عاد الشعب ليلعب لعبة العصا.

الفهرس

قصص وروايات

* توريبيو توريس.. الشهير بغارديليتو .... برناردو كوردون، ترجمة: صالح علماني
* مختارات قصصية من أدب أمريكا اللاتينية .... مجموعة مؤلفين، ترجمة: صالح علماني
* صفارات الانذار .... ابراهيم احمد
* الحرب في حي الطرب .... نجم والي
* زورق الموت والحياة .... عبد القادر معتوك
* مختارات قصصية .... ايتالو كالفينو، ترجمة: سمير القصير
* مختارات قصصية من الأدب الايطالي .... مجموعة مؤلفين، ترجمة: سمير القصير
* مذكرات جواز سفر .... قاسم حول

سلسلة الفلسفة والمجتمع

* في السياسة الإسلامية .... هادي العلوي
* نهاية الحرب الباردة والعالم الثالث .... فريد هاليدي، ترجمة: عبد الإله النعيمي

السلسلة الشعرية

* نزهة الآلام .... عبد الكريم كاصد
* هنا الوردة.. فلنرقص هنا .... عواد ناصر
* طيف من خزف .... هاشم شفيق
* مكائد أدم .... فوزي كريم
* الفصوصُ الاسكندنافيّة .... جمال جمعة
* سيرة التيه .... مخلص خليل

شعر

* قصائد الليل .... جهاد ابو سليمان
* قصائد النهار .... جهاد ابو سليمان
* قصر البداية .... كريم الأسدي

تحت الطبع

* بعد مجيء الطير «قصص المنفى» .... ابراهيم احمد
* دوي الساعات .... ابراهيم احمد
* المقدّس والعادي .... مرسيا إلياد، ترجمة د. عادل العوا



إيتالو كالفينو

مختارات قصصية



بين الخيال والتأمل وتصوير الواقع المرئي يصنع ايتالو كالفينو عالمه القصصي الخاص، يدخل إلى أعماق شخصياته، يتلبس أحلامهم وأوهامهم وخيالاتهم، يتجول معهم في البيئة المهددة بالموت، الملوثة بنفايات الحضارة، قبل أن يصطدم معهم بالواقع اليومي.

إن «ايتالو كالفينو» (١٩٢٣ ـ ١٩٨٥) هو الصوت الخاص المميز في الأدب الايطالي الحديث، الذي طرح الواقعية ذات الجذور العميقة، وكان كالفينو يحمل واقعيته الشعرية والفلسفية الخاصة، ذات العوالم الملونة المتغيرة، كما هي حياة الكاتب نفسه.

وهذه المجموعة المختارة من قصص كالفينو يمكن أن تغطي كل المراحل التي مرّ بها هذا الكاتب البارع في التحليل والتركيب والتأمل والشك، الذي أخفى صورته الشخصية وراء مشاهد بديعة من القصص الحية.

الناشر

SAHARA PRESS AND PUBLISHING HOUSE